الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي

في القرآن والسنة والمسائل الحديثة في العلم والإيمان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/١٠/٤٤٢١)

٢٢٧.٤
شهوان، راشد
الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة والمسائل الحديثة في العلم والإيمان/ راشد سعيد شهوان.- عمان: دار المأمون، ٢٠٠٩.
(٢١٣)ص
ر.أ.: ٢٠٠٩/١٠/٤٤٢١
الواصفات/ إعجاز القرآن// القرآن

❖ اعدت دائرة المكتبه الوطنيه بيانات الفهرسه والتصنيف الاوليه
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي

في القرآن والسنة والمسائل الحديثة في العلم والإيمان

تأليف

د . راشد سعيد شهوان

الأستاذ المشارك في جامعة العلوم الإسلامية العالمية

ورئيس قسم العقيدة والفلسفة الإسلامية

كلية أصول الدين





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث هدى ورحمة للعالمين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين ، اللهم اجعلنا هداةً مهديين غير ضالين ولا مضلين ، اللهم اهدنا واهد بنا واجعلنا سبباً لمن اهتدى ، اللهم أعز دينك وكتابك وسنة نبيك وعبادك الصالحين . اللهم ارزقنا الصواب والسداد في القوم والعمل والأمور كلها ، ثم أما بعد :

ففي بداية الحديث عن الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. وسائل العلم والإيمان ، لا بد من ذكر بعض المعالم المشرقة والثوابت الراسخة في حق كتاب الله المعجز الذي يحمل الكمال الإلهي في روعة بيانه ونظمه ولفظه وسمو معانيه وكمال صفاته وصدق أنبائه ودقة دلالاته وعدالة تشريعه ومكارم الأخلاق التي يدعوا إليها ، وضوابط السلوك التي وضعها ، وروعة العقائد التي رسَّخها والعبادات التي شرعها ، وتمام إحاطته بطبائع البشر ، والحقائق التاريخية والعلمية التي جاء بها .

ومن هذه المعالم المشرقة والثوابت الراسخة ، أن القرآن الكريم كلام الله المعجز الموحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربي مبين ، والمنقول عنه ﷺ نقلاً متواتراً بنفس النص الذي أوحى إليه ، والذي نجده في الصحف التي خطت في عهد النبي ﷺ من كُتّاب الوحي في حضرة النبي ﷺ وسميت سوره ورتبت بتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، وجمعت في عهد أبي بكر بإجماع الصحابة ونسخت في عهد عثمان رضي الله عنه ووزعت في الأمصار، ثم طبعت على مر العصور وسجلت في صدور الحفاظ جيلاً بعد جيل ، ومن ثم على مختلف صور الأشرطة والاسطوانات ، وعلى غير ذلك من مختلف صور الحفظ الحاسوبية المتعددة ، وقد

أقام الله تعالى لهذا القرآن الكريم عوامل الحراسة وتعهد بحفظه حفظاً كاملاً حرفاً وكلمة كلمة ، بينما تعرضت أصول الكتب السماوية السابقة كلها للضياع وتعرضت للتحريف والتبديل ، وتكفي الإشارة في ذلك أن الله تعالى الذي أنزل صحف إبراهيم عليه السلام والتوراة والزبور والإنجيل لم ينزل كتاباً اسمه العهد القديم أو العهد الجديد ، وكلاهما صناعة بشرية كاملة ، وعلى ذلك فالقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد المحفوظ بحفظ الله المتعبد بتلاوته ، والذي لا تصلح الصلاة إلا بقراءة فاتحته ، والذي لا يغني عنه في الصلاة شيء من الأحاديث والأذكار والأدعية .

أما السنة النبوية ، فهي المصدر الثاني للتشريع، والبيان القولي والعملي للقرآن الكريم التي تفصل مجمله وتوضح معانيه وتتم أحكامه ، ولم يُعرف أن نبياً من الأنبياء ولا عظيماً من العظماء جمعت سيرته وضبطت حياته الخاصة والعامة ، وحفظت ورويت للناس كاملة غير منقوصة مثل حياة رسول الله وسيرته المباركة ﷺ . فقد أقام الله تعالى لرسوله أصحاباً أمناء ورجالاً نبهاء ، فدوه بأرواحهم وأموالهم وديارهم وأولادهم ونقلوا عنه سنته بعناية فائقة في ضوء قواعد لا يجد العقل منفذاً لخدشها ، وقد كان نداء رسول الله ﷺ ودعاؤه يرن في آذانهم صباح مساء: ((نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فنقله مثل ما سمعه فرب مبلَّغ أوعى من سامع)) فقاموا رضي الله عنهم بأدب السماع منه والإسماع عنه خير قيام ، ونقلوا كلامه وتحركاته وسكناته ولفتاته وابتساماته وكل جليل ويسير عنه ، ولم تفتهم شاردة ولا واردة من كلامه الشريف ﷺ ، فما من كلمة في ميراث النبي ﷺ إلا وقد غربلت وصفيت ومحصت وضبطت بإتقان يضاهي ضبط الآلات المسجلة اليوم ، فإذا سمعت الحديث منهم فكأنك تسمعه من فم رسول الله ﷺ، وحفظ السنة من حفظ كتاب الله عز وجل .وإعجازهما يخرج من مشكاة واحدة . ولقد أشارات الأحاديث النبوية إلى حقائق علمية هامة إما تصريحاً أو تلميحاً قبل

أكثر من ألف وأربعمائة عام ، مما يبين لنا أنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

وقد جاء العلم الحديث ليشهد شهادة حق ، بصدق هذين الوحيين المعجزين .

ولم تكن معجزة الرسول ﷺ بالقرآن الكريم معجزة محلية أو مادية خاصة بقومه ، تنتهي بنهايتهم ، وإنما كانت معجزة تدرك بالأفهام والعقول لكافة الناس على اختلاف أجناسهم وأزمنتهم إلى قيام الساعة ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال ﷺ : ((كان النبي يبعث في قومه وبعثت للناس عامة)) [١] .

فكان لا بد أن تكون هذه المعجزة أبد الدهر تدركها عقول البشر وأفهامهم في كل عصر ومصر ، حتى تقوم الحجة على الناس أجمعين إلى يوم الدين ، فلا يكاد يمر عصر إلا ويظهر منه شيء مما أخبر به القرآن ليدل على صدق هذا الكتاب المعجز ، وقد ذكر الحافظ السيوطي من وجوه إعجاز القرآن خمسة وثلاثين وجهاً في كتابه : (معترك الأقران في إعجاز القرآن) كان أول وجه منها قوله : (احتواء القرآن على علوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ، ولا أحاط بعلمها أحد) لهذا فقد عجزت قدرات الأنس والجن ، ولا تزال عاجزة أن تداني كتاب الله تعالى وأن تأتي بصورة من مثله والحمد لله .

وقد حرصت أن يكون كتابي هذا في أسلوب سهل قريب من القارئ دون الإخلال بالمحتوى المطلوب ، مشتملاً على مواضع كثيرة تهم طلاب الجامعات ، ومستوفياً لمتطلبات الخطة الدراسية المقررة عليهم لمادة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، جامعاً لمواصفاتها المنهجية ، وقد حرصت على توثيق المعلومات فيه توثيقاً علمياً ، وأحلت فيها على مراجع أوسع لمن أراد أن يتواصل معها ويتابع البحث فيها .

---

(١) رواه البخاري

وأملنا بالله كبير أن تتلقى الناشئة هذا الكتاب بالدراسة والاهتمام ليكون مادة نافعة لهم ، ولغة تجمع بين الأصالة والتجديد، ومدخلاً للدعوة إلى الله في هذا العصر ، ليُسهم في إعلاء كلمة الله ويزيد من إظهار معجزة القرآن والسنة واستمرار سطوعها، ويقدم أوضح البراهين وأقوى الدلائل على أن القرآن والسنة سند للعقل والعلم، في زمن فتن الناس فيه بالعلم واكتشافاته فتنة كبيرة، وأتمنى أن يكون مقرر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وقضايا العلم والإيمان ضمن المقررات والمتطلبات الدراسية في جامعاتنا الإسلامية والعربية، لأنه يعين على تحقيق الرسالة العالمية للإسلام ، ويعين على النهضة بالأمة الإسلامية والتفكير الإبداعي لديها.

ويمكن أن نجمل أهمية خطة هذا الكتاب وأهدافه فيما يلي :

١. التعرف على دور القرآن والسنة في بناء الفكر العلمي والتوجيه إلى مناهج البحث بكل أنواعها والنقلات الحضارية والمعرفية التي أحدثها .
٢. التعرف على الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وأهمية دراسته ، ومنهج العلماء في معالجة قضاياه ومعرفة ضوابطه وقواعده .
٣. التعرف على بعض النماذج من وجوه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .
٤. التعرف على بعض الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن والسنة .
٥. صبغ العلوم التجريبية بالصبغة الإيمانية ، وتوجيه مسيرة الأبحاث العلمية وربطها بقيم الإسلام ومقاصد الدين وغاياته .
٦. التعرف على بعض قضايا العلم والإيمان ودراستها في ضوء الشريعة الإسلامية .
٧. الرد على شبهات الإلحاد والتصورات المادية الضالة ، والكتابات العقيمة التي أثارها أعداء الإسلام الحاقدين على القرآن والسنة .

وبالجملة فإن الكتاب يستعرض مجموعة من الحقائق العلمية وأوجهاً من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، وعدداً من قضايا العلم والإيمان من منظور الشريعة الإسلامية بطريقة منهجية .

وقد اشتمل الكتاب بوجه عام على المباحث التالية :

المبحث الأول : الضوابط الشرعية للاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن والسنة .

المبحث الثاني : إعجاز القرآن والسنة في الحديث عن علم الأجنة ونشأة الإنسان .

المبحث الثالث : نشأة الكون .

المبحث الرابع : من آيات الله وسننه في الأنفس والآفاق .

المبحث الخامس : العلاقة بين العلم والإيمان في الإسلام .

المبحث السادس : دور الكتاب والسنة في بناء الفكر العلمي .

المبحث السابع : الجفوة المفتعلة بين العلم والإيمان .

المبحث الثامن : بعض المسائل الحديثة في العلم والإيمان من منظور الشريعة الإسلامية .

المبحث التاسع : إيضاح لبعض السنن والقوانين والظواهر العامة في الكون

الخاتمة

والله أسأل أن يجعل فيما كتبناه وجمعناه خيراً وتذكرةً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وأن يجعل عملي هذا خالصاً موفقاً، وأن ينفعني به وسائر الخلق أجمعين ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . راشد سعيد شهوان

يوم الجمعة ٨ رمضان ١٤٣٠هـ

الموافق ٢٩/ ٨/ ٢٠٠٩ م .

المبحث الأول

الضوابط الشرعية للاكتشافات العلمية الحديثة

ودلالاتها في القرآن والسنة

ملخص البحث

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..وبعد:

فتشكل الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم محورا أساسيا في قضية توكيد حقائق القرآن الكونية، والكشف عنها، وأن القرآن الكريم أثار كثيرا من القضايا التي سبق بها العلم من جهة، وكانت من جهة أخرى إبداعا لمحاور علمية بناءة، وصورا من الإعجاز الخالد، في إثبات مصدرية القرآن وربانيته وتوثيق الإيمان بحجته البالغة، ومصداقية تلقيه عن الوحي.

فيحاول هذا البحث دراسة هذه القضية واستبصارها، ويتناول في بحثها القواعد والضوابط الشرعية التي تحدد مسار بحوث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ومسائل التوفيق بينها وبين الكشوف العلمية الحديثة، وفق المعالم العلمية المعتبرة والأصول الشرعية المقررة عند أهل الاختصاص. كما يحاول فحص مواقف العلماء واتجاهاتهم في قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ومناقشتها بشكل عام مع الترجيح والتوجيه المناسب.

ويهدف البحث من خلال ذلك إلى إثبات توافق الحقائق القرآنية مع الحقائق العلمية وكشوفاتها الحديثة، وإلى تأكيد التطابق بين آيات كتاب الله المسطور، وآيات كتاب الله المنظور، كما يهدف إلى توسيع النظرة إلى فهم النص القرآني، والارتقاء إلى آفاق إعجازه

العلمي، الذي أخذ يتألق في الدراسات المعاصرة، ويتلاقى مع كثير من النظريات العلمية الحديثة، ويشد الأنظار إليها.

كما نروم في هذه الدراسة إلى تنهيج البحث العلمي في الكتابة في قضايا هذا الموضوع، وضبط مسار البحث فيه من المزالق العلمية والذهنية، والحد من الاستطراد والارتجالية الفكرية في تأويل النصوص ومواءمتها لغير مقاصدها الشرعية والإيمانية. ونرجو من الله عز وجل أن يشكل ذلك كله منظومة ضابطة للتعامل مع هذه القضية وإدراك مراميها.

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث هـدى ورحمـة للعـالمين وعـلى آلـه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن العلم التجريبي الحديث في محاولاته المتنوعة قد توصـل إلى كشـوفات واختراعـات وحقائق خفيت على غير المتعلمين ، وإذا أمعنا النظـر في كثـير مـن هـذه الحقـائق، وجـدناها مطابقة لكثير من الآيات التي أشار إليها القرآن الكريم قبل خمسة عشر قرنا.

وهذا يؤكد وعد الله في محكم كتابـه مـن أن النـاس سـيرون آياتـه الدالـة عـلى عظمتـه ووحدانيته وإبداعه في ملكوتـه، قـال تعـالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[فصلت: ٥٣] وقوله عـز وجـل: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣] وقد صرح القرآن الكـريم بـأن قسـما مـن حقائقه ستظهر بعد زمن التنزيل، قال تعـالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص: ٨٧ – ٨٨] ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾[يـونس: ٣٩] وهذا يؤكد قوله عليه الصلاة والسلام: "ألا إني قد أوتيت القرآن ومثله معه" (١) وقوله عليه الصلاة والسلام: "بعثت بجوامع الكلم" (٢) .

---

(١) رواه الترمذي في سننه في كتاب فضائل القرآن والحديث في سنده ضعف لكن متنه حسن فلا يتجـه الحكـم بوضعه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ومسلم في المساجد، وقال ابن حجر في الفتح ٢٤٧/١٣. كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني، ونقل عن البخاري قوله: بلغني أن جوامع الكلم أن الله عز وجل يجمع له الأمـور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد أو الاثنين، انظر الفتح ٢٤٧/١٣، فنصوص الـوحي في هديه عليه الصلاة والسلام جاءت بألفاظ جامعة مختزلة كمجامع الحكم والأمثال.

وهذا يؤكد قول علي رضي الله عنه: "أن القرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلـق عـن كثـرة الرد" [1] .

ولقد ظهر في عصرنا الحديث مؤلفات كثيرة تهتم بهذه القضية، وخصصـت مسـاحات واسعة لتوضيحها وتوكيدها، وكان لهذه الكتابات لون جديد في تفسير القرآن الكـريم يـربط بين هذه الحقائق والاكتشافات وبين دلالاتها في القرآن الكريم، لإظهار التوافق بـين صـحيح المنقول وصريح المعقول، وبيان الترابط بين سنن الله الهادية وسنن الله البانية.

وإن تطور هذه القضية أدى إلى تنوع مواقف الدارسين لها، مما أدى إلى ظهور أكثـر مـن موقف واتجاه في تأكيدها أو معارضتها، وهذه الدراسة ستحاول بيان هذه المسـألة، والنظـر في هذه المواقف، ومناقشتها مع الترجيح والتوجيه المناسب لاتجاهات الدارسين لها بصفة عامـة، والتأكيد على القواعـد والضـوابط الشرـعية التـي يجـب أن يـتحلى بهـا البـاحثون في مسـائل الإعجاز، وسيتناول البحث في هذه الدراسة المطالب التالية:

المطلب الأول: أصول ومقدمات في مسـائل التوفيـق بـين حقـائق القـرآن والكشـوف العلمية الحديثة.

---

(١) حديث موقوف على الإمام علي رضي الله عنه، رواه الترمذي والدارمي عن ابن مسعود، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٧/٢) والحديث يشير إلى خلود الكتاب العظيم، ونصه: (ألا إنها ستكون فتنـة، قلـت (القائل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه) فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال كتاب الله، فيه نبـأ مـن قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومـن ابتغـى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والنور المبين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثـرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا "إنا سمعنا قرآنا عجيبا، يهـدي إلـى الرشد فآمنا به" [الجن/١]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلـى صراط مستقيم، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار".

المطلب الثاني: مواقف العلماء من تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم والتوفيق بينها وبين الكشوف العلمية الحديثة.

المطلب الثالث: القواعد والضوابط الشرعية للتعامل مع الحقائق العلمية في القرآن والسنة وكشوفاتها الحديثة.

الخاتمة وأبرز النتائج والتوصيات

المطلب الأول

أصول ومقدمات في مسائل التوفيق بين حقائق القرآن والكشوف العلمية الحديثة

تقع قضية التوفيق بين حقائق القرآن الكريم والكشوف العلمية الحديثة في أغلبها تحت مبحث التفسير العلمي للقرآن الكريم، وتنتمي في مجالها الواسع إلى مناهج المفسرين بحقولها المعروفة، ولما كانت أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم متعلقة بالتفسير العلمي للآيات الكونية، فإنه يحسن بنا في مطلع الحديث عن هذه القضية أن نشير إلى بعض الأصول والتصورات الأساسية والمقدمات الضرورية لفهم هذه القضية مثل:

أولا: أهمية الحديث عن الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم.

ثانيا: التعريف بالمعجزة والإعجاز في اللغة والاصطلاح، ومدى مطابقة ذلك للمعاني الواردة في القرآن الكريم.

ثالثا: بيان الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

رابعا: الإشارة إلى أوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وذلك على النحو التالي:

أولا: مسوغات الاهتمام بقضية الاكتشافات العلمية ودلالاتها في القرآن الكريم.

يمكن لنا الحديث عن أهمية هذه القضية وما يترتب عليها من نتائج وآثار في نقاط سريعة، تاركين التفصيل فيها إلى مقام آخر، إذ يكفينا من العقد ما يحيط بالعنق، وتبدوا أهميتها في النقاط التالية :

١. امتثال أمر الله جل جلاله بتدبر القرآن الكريم عن طريق الوقوف على أوجه إعجازه، فإنه ادعى إلى حصول الإيمان وتذوق حلاوة القرآن، فمن لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر، لم يدرك كمال لذة القرآن، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] وهو كتاب كثير الخير والبركة ﴿ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦] وقال تعالى﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [الأنعام: ١٠٤] . وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]

٢. إن الحديث عن هذه القضية بكل أطرها ومجالاتها يعد تجديدا لبينة الرسالة الإسلامية، ولغة جديدة لزيادة الإيمان، ومدخلا للدعوة إلى الله في هذا العصر، برهانا على صلاحية القرآن لكل زمان ومكان.

وإن مواصلة أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن وكشوفاتها الحديثة، كفيلة بعون الله بإظهار معجزة القرآن والسنة واستمرار سطوعها وتجديد بيانها وبيناتها، وتقديم أوضح

البراهين وأقوى الدلائل على أن القرآن والسنة، سند للعقل والعلم، في زمن فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته واكتشافاته فتنة كبيرة، فلسان حال هذا العصر، واللغة التي يفهمها كثير من الناس، ويحاورون بها، هي لغة العلم، وطريقة الأنبياء في حمل الدعوة والتبليغ، كانت بلغة أقوامهم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤] فلغة العصر اليوم هي لغة العلم.

٣. إثارة الاهتمام بالعلوم التقنية والاكتشافات الحديثة، استنهاضاً للعقول واستثارة للتفكير الإبداعي فيها، وتشجيعاً للبحوث العلمية التي تزيد الإيمان ، والتي تخلّفت الأمة في مجالاتها مؤخرا تخلفا كبيرا، وسوف يكون هذا العصر بعون الله هو العصر الذهبي للإسلام، إذا استطعنا أن نستثمر فيه تقنيات العلم ومعطياته، في الكشف عن أبعاد الآيات الكونية والدخول إلى مواقع القرآن العلمية لاستبصارها، وتوظيفها في خدمة الإسلام والدعوة إليه.

٤. إيجاد رابطة قوية بالله من أجل بناء منظومة معلوماتية وتقنية إيمانية لعمارة الكون عمارة صالحة، وترشيد الحضارات للسعي لمرضاة الله بعيدا عن الظلم والبغي العالمي، الذي نشهده اليوم.

٥. ضبط العلم بالضوابط الأخلاقية، التي تغذيه بالغذاء الصالح، وتسخيره لخدمة القيم الإيمانية ونصرة الحياة الروحية وحماية البشرية من نتائجه المدمرة، والانفراط العظيم للمجتمعات.

٦. تحقيق عبادة التفكر لتعميق الإيمان في النفوس وتقوية الصلة بالله، وتكوين العقلية العلمية التي تبني الأمم وتنشيء الحضارات.

٧. الدفاع عن القرآن الكريم والوقوف أمام الحملات الموجهة إليه، المدفوعة بروح متعصبة جاهلة، والتصدي للدعوات الساخرة التي تحاول محاكاة القرآن والإتيان بمثله، مستغلة بذلك بعض السذج والمغفلين في كتاباتها العقيمة، الخالية من الموضوعية والعلم والحياد الفكري.

٨. تصحيح مسار العلم التجريبي في الكتابات المعاصرة، ووضع صياغة إسلامية للبحوث والمعارف الحديثة التي انطلقت من منطلقات مادية لا تؤمن بالغيب، وتصحيح ما شاع من أفكار باطلة حول الكون والإنسان والحياة، وإزالة الجفوة المفتعلة بين العلم والإيمان، ليظل العلم وتقنياته في خدمة الإسلام.

ثانيا: التعريف بالمعجزة والإعجاز في اللغة والاصطلاح، ومدى مطابقة ذلك للمعاني الواردة في القرآن الكريم.

الإعجاز في اللغة والاصطلاح: أصل كلمة (الإعجاز) في اللغة العربية، مصدر مشتق من الفعل الرباعي (أعجز) ومعناه : عدم القدرة على فعل الشيء، يقال عجز عن الأمر: إذا قصر عنه وضعف عن الإتيان به، وهو ضد القدرة[1] قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ﴾ [المائدة: ٣١] ويأتي بمعنى الفوت والسبق، فيقال: أعجزه أي فاته وسبقه ، والعَجُز مؤخرة الشيء، وأعجاز النخل هي أصولها.

وبالتأمل فيما سبق نجد أن الأصل في دلالة الكلمة في العربية أن تستعمل في معناها الحسي الحقيقي الذي وضعت له، ثم تتطور فتتسع لتدل على غير المحسوس لعلاقة وقرينة بين المعنيين، أي تتسع لتدل على الأمور المعنوية دلالة مجازية.

---

١ . إبن منظور، لسان العرب (مادة عجز) ٣٧٠/٥، الراغب الأصفهاني، المفردات ص٣٢٢.

وتعتبر المعاني التي ذكرناها للفعل (عجز) هي الأصل في الاستعمال، إلا أنه يجوز استعمالها في معان أخرى، على أن يكون المعنى الذي اصطلح عليه ذا صلة بالمعنى اللغوي الأصيل، كما اصطلح النحاة على كلمتي (فاعل ومفعول) مثلا، إذ نقلها من المعنى اللغوي إلى مصطلح نحوي محدد.

فالمعنى الاصطلاحي متطور كما هو واضح، فمصطلح الإعجاز على هذا يمكن أن يتسع ليطلق على كل شيء متميز رفيع المستوى لا يمكن مجاراته، وما الإعجاز العلمي إلا وجه من وجوه الإعجاز وصوره الكثيرة التي تدل على الحق وتظهر صدقه والتي يعجز الناس أن يأتوا بمثلها أو يجاروها.

تطور التعريف الكلامي لمفهوم المعجزة والإعجاز:

هناك تعريفات كثيرة لمصطلح المعجزة بسبب تطور التعريف الكلامي لمفهوم المعجزة، لا يتسع المقام لذكرها، نشير إلى بعض منها:

قال ابن حجر: "(المعجزة) اسم فاعل من الإعجاز، وسميت بذلك لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها" [1] .

وذكر البعض أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة[2] وذكر آخرون أن الإعجاز يقصد به إعجاز الناس، أن يأتوا بسورة مثله مع شدة عداوتهم وصدهم عنه[3].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ٦/ ٥٨٢، نشر إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض.

(٢) المرجع السابق، ٥٨٢/٦.

٣ . الطبري، جامع البيان ٩٦/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أي نسبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم الإتيان بمثله، أو هو إثبات عجز الكافرين وعدم قدرتهم على تقليد ما جاء به أنبياؤهم عليهم السلام من خوارق العادات.

من خلال التعريفات السابقة لمصطلح معجزة، يظهر لنا أنها أخـذت جانـب التحـدي البيـاني، والحقيقة أن غالب هذه التعريفات ـ وإن كان لها ما يؤيدها من اللغة ـ قد نشأ في بيئة المتكلمـين الـذين كانوا يدافعون عن القرآن الكريم، ويردون شبهات الزنادقة وأباطيل الملا حدة وأهل الأهواء. وأكثـر من أفاض في استعمال هذا المصطلح أرباب الأصول والعقائد وأهل البلاغـة، ويغلـب عـلى الظـن أن مصطلح الإعجاز والمعجزة لم يظهر قبل القرن الثاني الهجـري[١]، فالكتابـات في القـرن الثالـث الهجري ما زالت تعتمد كلمة (الآية) في المواضع التي ينبغي أن تستخدم فيها كلمـة المعجـزة، كما يدل على هذا كتاب علي بن ربن الطـبري (الأسـلوب والبلاغـة)، وأول مـن نسـب إليـه استخدام لفظ الإعجاز هو النظّام المعتزلي المتوفى سنة ٢٣١ هـ[٢].

وفي القرن الرابع الهجري تتالت وتتابعت فيـه المؤلفـات للـدفاع عـن أسـلوب القـرآن فشارك في ذلك الرماني (ت ٣٨٦ هـ) في رسالته (النكت في إعجاز القرآن)، ويعتـبر الخطـابي (ت ٣٨٨ هـ) من أبرز من تناول إعجاز القرآن في رسالته (بيان إعجاز القرآن)، ثم أتم الإمام الباقلاني (ت٤٠٣ هـ) المسيرة التي بدأها علماء القرن الرابـع الهجـري لبيـان إعجـاز القـرآن بكتابة (إعجاز القرآن) حيث بيّن فيه أن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بنيـت عـلى القـرآن، وإنها معجزة عمّت الثقلين. ويعد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) أبرز مـن تنـاول قضـية الإعجاز من علماء القرن الخامس الهجري في (الرسالة الشافية) المطبوعة ضمن ثلاث رسـائل في الإعجاز، وفي كتابه (دلائل الإعجاز). ثم تتابع العلماء الأجلاء بعـد ذلـك في تبيـين أسرار

---

١. عباس، فضل حسن، إعجاز القرآن الكريم، ص٢٨، دار الفرقان، عمان ٢٠٠٢.

٢ . عبد الكريم الخطيب، الإعجاز القرآني في دراسة السابقين١/ ١٥٦، مؤسسة الرسالة، بيروت١٩٨٤.

القرآن وأوجه الإعجاز، وكان منهم الزمخشري المفسر (ت ٥٣٨ هـ) والرازي (ت ٦٠٦ هـ). ويظهر أن فكرة فن البلاغة نابعة من البحث في مسائل الإعجاز وأن فكرة إعجاز القرآن كانت من أقوى البواعث على نشأة البلاغة، إن لم تكن أقواها، ولا نستطيع أن نستنتج من هذا أن كلمة (معجزة) لم تستعمل حتى ذلك الوقت وإنما نستطيع أن نؤكد أنها لم تكن شائعة الاستعمال.[١]

وهكذا نلحظ أن مصطلح المعجزة والإعجاز من المصطلحات التي لم تكن معروفة في عهد النبوة والصحابة والتابعين، وإنما عرفت فيما بعد واستقرت في أدبياتنا وتراثنا الإسلامي، وتطور تعريفها بسبب تطور الحياة الفكرية والاحتكاك الثقافي بالأمم الجديدة التي دخلت الإسلام من أهل فارس والروم، وبعامل التأثير والتأثر، فكانت معجلا في توليد كثير من المسائل والقضايا في هذا الموضوع، الذي عالجه العلماء الأجلاء في زمانهم. ونحن في هذا المقام لا نتحدث عن نشأة الإعجاز من حيث هو دلائل النظر في القرآن وتدبر معانيه، فهذا أمر متفق عليه، فالنظر في إعجاز القرآن داخل في تدبر معانيه، ومأمور به منذ بداية التنزيل، قال تعالى: "﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين وتحدى العرب وهم أرباب الفصاحة والبيان أن يأتوا بمثله فعجزوا. أفلا يسعنا ما وسعهم في زمانهم من معالجة مثل هذه الموضوعات، أن نوسع من مفهوم الإعجاز في عصرنا وما يمليه علينا من تحديات ومستجدات، فيسعنا ما وسعهم من كتاب الله عز وجل ولغته الحية، فنكون بذلك كما كانوا على مستوى زمانهم وعلى مستوى قرآنهم، فنستجيب لمتطلبات عصرنا ومواجهة مشكلاته، فنعطي إعجاز القرآن الكريم تصورا ينسجم مع اتساع دائرة الإعجاز في عصرنا، لاسيما وأن آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم (الآيات الكونية) لا يمكن

---

١ . نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن الكريم، ٢٧، ٤٥، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٠.

فهمها فهما كاملا في إطار اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ انطلاقا من شمول الدلالة القرآنية، ومن كلية المعرفة التي لا تتجزأ، ولا يمكن الوصول إلى سبقها بالحقيقة الكونية ـ أو ما نسميه بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم ـ دون توظيف الحقائق العلمية التي توافرت معرفتها لأهل زماننا الراسخين في العلم، كل في حقل تخصصه، فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن الكريم بل هي علوم لفظه، وما قام به العلماء في الماضي ويقومون به اليوم، هي علوم معانيه، والذي يعزز هذا الفهم أن وجوه الإعجاز ودلالاتها في كتاب الله متعددة كثيرة، وليست محصورة في الإعجاز البياني فحسب، كما سنوضح ذلك بعون الله.

مدى مطابقة مفهوم المعجزة والإعجاز للمعاني الواردة في القرآن الكريم.

يقول الدكتور عبد الله المصلح رئيس هيئة الإعجاز العلمي في رابطة العالم الإسلامي، رغم شيوع مصطلح المعجزة وتحديد معناها بالأمر الخارق والمقرون بالتحدي السالم عن المعارضة،[12] ورغم قرب هذا المصطلح إلى الذهن، إلا أني لم أجد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم دالا على هذا المعنى، وما وجدته من مادة (عجز) في القرآن والسنة، لم أر فيه ما يدل على هذا المصطلح.[13]

أما الألفاظ المستخدمة قرآنيا في الدلالة على هذا المعنى، والتي كانت تقوم مقام المعجزة فهي: (الآية، البينة، البرهان، بصائر، السلطان)، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ **[الإسراء: ٥٩]** وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ **[هود: ٥٣]** وقال تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ **[القصص: ٣٢]** وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ **[الأنعام: ١٠٤]** وقال تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ **[إبراهيم: ١٠]**.

فعلى هذا يجوز التعبير بالإعجاز العلمي، والأمر فيه متسع، والذين قيدوا الإعجاز بالتحدي، وحصروه في الإعجاز البياني فقد ضيقوا واسعا.

ولهذا يحسن بنا أن نوسع من دائرة فهمنا لمعنى الإعجاز في القرآن الكريم، فنبين أن معناه: عجز الخلق أجمعين، إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين، أن يأتوا بشيء مثله. وهذا الذي نقرره، قد أكده الدكتور حسن العتر، حيث يقول: "معنى الإعجاز في فهمنا: أن يتعذر على البشر فصحاء وعلماء وعامة، الإتيان بمثله في أسلوبه البياني أو أخباره الغيبية، أو أي من وجوه الإعجاز".[14]

وإن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه هو من مواقف التحدي للناس كافة، مسلمين وغير مسلمين، بأن كتابا أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أميّ في أمة كانت غالبيتها من الأميين، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يحتوي من حقائق الكون ما لم تتوصل إليه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، بعد محاولات طويلة قام بها مئات من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرا لهذا العلم الحق في ذلك الزمن البعيد غير الله سبحانه وتعالى، ونحن في هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم ولم ننتصر للقرآن بالعلم.[15]

ثالثا: التفسير العلمي والإعجاز العلمي

التفسير مشتق من الفسر، وهو الإبانة والكشف.[16]

أما في الاصطلاح فله تعريفات منها: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.[17]

وهذا التعريف شامل لأنواع التفسير كلها، سواء ما كان غايته بيان الألفاظ والتراكيب، أو استخراج الأحكام والحكم، ومن هذا الأخير التفسير العلمي الذي يتناول العلوم الكونية والصنائع والمعارف كعلم الهندسة والحساب والهيئة والطب والصيدلة والاقتصاد والاجتماع والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وعلم طبقات الأرض، وعلم البيئة والمياه والنفس...إلخ.

أما من حيث العلاقة بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، فقد جرت بعض الكتابات على التفريق بينهما، واتجه بعض الباحثين إلى أن هذا التفريق شكلي، انطلاقا من وحدتهما الموضوعية وتداخلهما معا، وشمول الدلالة القرآنية للإشارات الكونية.

التفسير العلمي:

والذين فرقوا بينهما عرفوا التفسير العلمي بأنه:- اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القران الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز للقرآن، يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان.[18]

وعرفه الشيخ الزنداني: بأنه الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية.[19]

وبمعنى آخر: هو استخدام العلوم الطبيعية، كالرياضيات وعلوم الفيزياء والفلك والطب وغيرها من العلوم الحديثة في تفسير آيات القرآن الكريم، وعدم الاكتفاء باللغة والبلاغة والعلوم الشرعية.

والذي يظهر أن التفسير العلمي بحسب الإطلاق، أكثر عموماً من الإعجاز العلمي، فكل إعجاز علمي هو من قبيل التفسير العلمي دون العكس، أي أن الإعجاز العلمي نوع من

التفسير العلمي لكنه أكثر خصوصاً، هذا من حيث العلاقة بينهما، أما من حيث وضعهما كمصطلحين، فيمكن أن نفرق بينهما بما يأتي:

١ . الإعجاز العلمي خاص بما يتعلق بالتوفيق بين الحقائق الشرعية والحقائق الكونية، و التفسير العلمي يتناول النظريات والإشارات الضمنية .[20]

٢ . الإعجاز العلمي والتفسير العلمي مختلف فيهما بين أهل التفسير، لكن الذين يقولون بالإعجاز العلمي أكثر من الذين يمنعونه، مثل الشيخ محمود شاكر والدكتور محمد لطفي الصباغ والدكتور عدنان زرزور.

٣. التفسير العلمي ـ إذا لم تراع ضوابطه و شروطه - يكون سببا في وقوع الخطأ في فهم كتاب الله تعالى لسعة مجاله، ولذا فإن كثيرا من الباحثين المعاصرين انحرفوا عن الصواب فوقعوا في أخطاء شنيعة عندما حاولوا ربط فهمهم للوحي بنظريات وفروض خاطئة.[21]

أما الإعجاز العلمي في القرآن و السنة فهو أوضح من ذلك وأبعد، والخطأ فيه أقل؛ إذ إنه غالبا ما يكون في عدم الربط بين الحقيقة الشرعية و الكونية.[22]

وينبغي أن ننبه في هذا المقام إلى موقف من يعترض على استخدام مصطلح الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كمسمىً ولفظ، ولا يلغي الحقائق العلمية في القرآن الكريم، بل يرى أنه يجب تقديمها للناس باعتبارها أدلة على أن القرآن كلام الله، كما سنوضح إن شاء الله.

الإعجاز العلمي:

هو إخبار القرآن الكريم أو إشارة السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي أو زمن الصحابة.[23]

ووصف الإعجاز أنه علمي نسبة إلى العلم، والعلم يطلق ويراد به معنيان: الأول: التصديق الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل، كالعلوم التجريبية.

الثاني: صفة ينكشف بها المطلوب انكشافا تاما، أو إدراك الأشياء على حقيقتها[24] وتصورها ومعرفتها باعتبارها علماً.

فعلم الإعجاز، أو الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: يقوم على دراسة جملة من المسائل المنضبطة المحررة التي تدرس موضوعات معينة متميزة.

بمعنى آخر: علم يضم أيضا مجموعة من المباحث تحت اسم مشترك. وهذه الموضوعات منها ما يتعلق بالإعجاز النفسي ومنها ما يتعلق بالإعجاز الكوني والطبي، ومنها ما يتعلق بالإعجاز التشريعي والإعجاز التأثيري والإعجاز التاريخي والإعجاز التربوي...إلخ، والإعجاز البياني هو القالب الذي تصب فيه كل أنواع الإعجاز.

والإعجاز العلمي يضم مجموعة من المباحث والموضوعات التي تتعلق بالآيات والأحاديث التي تشير إلى الكون بطبيعته السماوية والأرضية بأحيائه وجماداته، وعناصره وظواهره والسنن الربانية التي تحكم ذلك كله.

ولقد أجاد وأفاد الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي بما اشتمل عليه من بيان لمقاصد القرآن وموضوعاته العلمية المعجزة، وبما اشتمل عليه من الحديث عن تجديد التحدي بتعاليم الوحي، وما كان لهذه الموضوعات من تأثير بالغ في بناء الفكر وتوجيه المعرفة، وتكوين العقلية العلمية، التي تبني الأمم وتنشئ الحضارات.

تأصيل وظيفة الإعجاز العلمي بوصفه علماً:ـ

إن تأصيل مفهوم الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في هذا العصر يعتبر من فقه الأولويات. ونقصد بالتأصيل بصفة عامة: عملية إعادة بناء العلوم والمعارف والموضوعات

الحديثة في ضوء التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، بعد نقضها ونقدها في ضوء الكتاب والسنة واستثمار ما ثبت صحته منها.[25]

وهو يشكل في نظرنا، إعادة توجيه وتشكيل للعلوم الطبيعية التي تعنى بالظاهرات الطبيعية والإنسانية في مجالها الكوني كله، التي تتجاهل الغيب وتتناسى الإيمان، وربطها بالله سبحانه وتعالى، فوظيفة علم الإعجاز ومهمته، أنه يتكفل باستخلاص المضامين العلمية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويبحث مستجدات العلم ومكتشفاته التي أخبر الله عنها وعن حقائقها وعن وقوعها، وتنظيمها ووضعها في أطر كلية متكاملة للربط بين العلم والإيمان، والعقل والنقل، والربط بين القرآن والواقع الذي وصلت إليه الحقائق والكشوفات العلمية الجديدة.

ونحن بهذه التصورات للإعجاز العلمي، ندعو إلى تفعيل هذا العلم والانتقال به من النظرية إلى التطبيق، وإبرازه في الدراسات الجامعية، واستثماره في شتى المجالات العلمية والعملية. وهذا العلم الذي يتجدد في هذا الزمان، نتمنى أن يكون له أقسامه وتخصصاته ورجالاته المتميزون، لأن كل علم يعرف برجاله وموضوعاته التي تميزه عن غيره من العلوم الأخرى. وإن استمرار أبحاث هذا العلم وتطور موضوعاته، كفيل بعون الله تعالى بإظهار معجزة القرآن العلمية وتجديدها، واستمرار سطوعها، وازدياد آثارها في النفوس، ونفاذها إلى القلوب، لترسيخ اليقين بعظمة الله وقدرته، والتوكيد على أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ليبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، وليبقى العلم والإيمان في صحبة مؤنسة، والوشيجة بينهما واحدة.

رابعا: أوجه الإعجاز العلمي وصوره في القرآن الكريم.

تتعدد أوجه الإعجاز وصوره ومجالاته وميادينه في كتاب الله، التي يعجز البشر عن

الإتيان بشيء مثلها، بتعدد الزوايا التي ينظر من خلالها الباحثون، إلى كتاب الله تعالى، على اختلاف تخصصاتهم.

ولقد شاع مصطلح الإعجاز العلمي في عصرنا للدلالة على أوجه الإعجاز كلها في القرآن الكريم والسنة المطهرة، التي كشفت عنها العلوم الكونية والتربوية والنفسية والاجتماعية والعلوم التجريبية التي انبثقت في هذا العصر.

فموضوع إعجاز القرآن الكريم ليس له نهاية، وفي كل يوم فيه جديد، وأوجه إعجازه ومعجزاته العلمية تظهر لأهل العلم على تنوع مشاربهم وميادين تخصصاتهم وأبحاثهم، وهي ظاهرة في نظمه ولفظه وبيانه ودلالاته، وفي مضمونه ومحتواه وفي كل حرف من حروفه وكل كلمة من كلماته، وكل آية من آياته، وهي ظاهرة في إخباره عن الأولين وفي إنبائه بحوادث التاريخ واستشراف المستقبل وحكم التشريع، وسنن الله في الأنفس والآفاق وفيما نعلم وما لا نعلم. ولقد اجتمع في القرآن الكريم من الآيات ما لم يجتمع في غيره، فهو الدعوة والحجة والبينة، والدليل والمدلول، والشاهد والمشهود..

ولقد اقتصر التأليف في الإعجاز قديما على الإعجاز البياني لاعتبارات كثيرة، منها كونه اللواء والوعاء الذي يحمل كل أنواع الإعجاز. وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز في كتاب الله، فكان منهم من رأى ذلك في جمال بيانه وكمال بلاغته ودقة نظمه، وروعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها، وقدرتها على مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم وأزمانهم، ومنهم من أدرك أن أوجه إعجازه في كمال تشريعه ومنهجه العلمي والتربوي وخطابه النفسي وإنبائه بالغيب وإشاراته العديدة للكون بعناصره وظواهره وسننه التي تحكم ذلك كله، وإلى الإنسان ومراحل خلقه. ومن العلماء من يرى أن إعجاز القرآن الكريم في تلك الوجوه كلها، وفي غيرها مما يقصر الحديث عنه.[26]

وهناك أقوال ومنازعات كثيرة للعلماء من أهل النظر في هذا الموضـوع، لا يتسـع المقـام لبيانها، نذكر منها نموذجا من كلام الخطابي، فما لا يدرك كله لا يترك جله، حيث يشير إلى مـا قيل في شأن وجه إعجاز القرآن من أقوال مناقشا لها، ومنها:

أولا: إن العلة في إعجازه الصرفة.[*] ثانيا: ما تضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان. ثالثا: صنيعته في القلوب وتأثيره في النفوس، ومثل له بقصة عتبة بـن ربيعـة وإسـلام عمر رضي الله عنه. رابعا: رأي الأكثرية من أهل النظر أن إعجازه من البيان .

ثم بين أن القرآن نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة...ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه.[27]

ثم وضح رأيه فقال: إنما يقوم الكلام على أشياء ثلاثة: لفـظ حامـل، ومعنـى بـه قـائم، ورباط لهما ناظم.

ثم قرر أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفـاظ في أحسـن نظـوم التـأليف مضمنا أصح المعاني.

ثم قال: وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتـى لا ترى شيئا من الألفاظ، أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسـن تأليفـا، وأشد تشاكلا من نظمه.[28]

فالقرآن الكريم معجز في فصاحته وبلاغته وأسلوبه وفي تفاصيله وجزئياته، ومعجز في كمال رسالته، وفي مجموع العقائد التي يدعو إلى الإيمان بهـا، وفي مجمـوع العبـادات التـي أمـر بأدائها، ومجموع موضوعاته. ومعجز في دستوره الأخلاقي الذي ينفرد به، وفي كل تشريع من تشريعاته الناطقة بدقتها وعدلها وشموليتها، وما أشار إليه من سنن هاديـة وسـنن بانيـة. فـما

أحرانا أن نكون على مستوى قرآننا وعلى مستوى عصرنا وديننا لإظهار ما في كتاب الله تعالى من جواهر الإعجاز وكنوز المعجزات، ونزيد من سطوعه سطوعاً ومن نوره نوراً على نور، ونزداد إيمانا مع إيماننا، فهذا زمان العلوم وهذا زمان ظهور الإسلام دين العلم والمستقبل، وهذا هو العصر الذهبي للإسلام إذا استطعنا أن نستثمر تقنيات العلم ومعطياته وتوظيفها في خدمة الإسلام والكشف عن أطياف الآيات الكونية وأمواجها، والدخول إلى مواقعها العلمية في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد هذا يمكننا أن نجمل ميادين الإعجاز العلمي ومجالاته في نقاط تتمثل فيما يلي:

١. في التوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة، وبين ما كشفه العلماء من حقائق كونية وأسرار علمية، لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن مثل مطابقة علم الأجنة لما جاء في القرآن والسنة.

٢. سنن التشريعات الحكيمة، التي قد تخفى حكمتها على الناس وقت نزول القرآن، وتكشفها أبحاث العلماء في شتى المجالات، مثل ما كشفه العلم حديثا من حكم تحريم أكل الخنزير وغير ذلك.

٣. في عدم الصدام بين نصوص الوحي القاطعة التي تصف الكون وأسراره على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها.

أما ميادين أبحاث الإعجاز العلمي، فإن كل موضوع تحدث عنه القرآن والسنة، في أي مجال من مجالات العلم التي ظهرت حقيقتها، والتي لا يمكن نسبة خبرها الذي جاء به الوحي إلا إلى الله، هو ميدان من ميادين أبحاث الإعجاز العلمي، الذي كشفت عنه العلوم الحديثة. وميادينه حسب هذا الفهم، هي الميادين والمجالات الكونية التي جاء ذكرها أو الإشارة إليها في القرآن والسنة ، وتمكن العلم البشري من معرفة أسرارها، إلى جانب الميادين التي يحتاجها

الباحث لتفسير النصوص الشرعية تفسيرا صحيحا لا شطط فيه.(29)

وأبرز ما يمثل هذا الفريق من المتأخرين، الشيخ محمود شلتوت والأستاذ سيد قطب والدكتور محمد حسين الذهبي والدكتور عبد الله دراز في بعض آرائهم، ولعل الذي دفعهم للتضييق، هو ردهم لتيار العابثين وموجة المتعسفين التي كانت حادة في زمنهم، التي ركبها دعاة التجديد والعصرنة والتغريب، الذين أعجبوا بكل ما يأتي من الغرب من علوم واكتشافات حديثة، خيرا كانت أم شرا، وما يحمد منها أو يعاب، لاسيما وأنه من الواضح أن هناك صلة بين ظهور التفسير العلمي الحديث وبين بداية تأثير الغرب على العالمين العربي والإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين أصبحت كثير من أراضي المسلمين تحت الحكم الأوروبي، وانبهر المغلوب بالغالب ـ فأخذ هذا التيار يفسر النصوص القرآنية ويؤولوها على غير هدى من هواه، فكان التشدد الموجه إليهم نابعا ـ آنذاك ـ من شدة التصدي لتيارهم العابث والرد على منهجهم المنحرف، باعتبار أن لكل مقام مقال ولكل فعل رد فعل ولكل حادثة حديث، والذي يراجع كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين بأجزائه الأربعة للشيخ مصطفى صبري ـ رحمه الله ـ يدرك حجم هذه القضية وأبعادها، وقد كان موقف هذا الفريق من العلماء من أصحاب هذا الاتجاه، أقرب إلى الحيطة والاحتراس، منعا لهم من التمادي والاندفاع في هذا السبيل أو الإفراط والمبالغة فيه ، ولم يكن المنع والتشدد والتضييق في موقفهم هذا على إطلاقه، وخصوصا إذا جاء هذا التفسير من العقلاء والمتخصصين والكتابات الناضجة، وتمت فيه، مراعاة الأصول والضوابط الشرعية. فلابد إذاً لفهم هذا الفريق من العلماء، واستيعاب أقوالهم على أصولها، من الاحتكام إلى العوامل المتعددة التي أفرزت آراءهم، ووضع الوقائع في بيئتها الصحيحة، بنظرة شمولية متوازنة متكاملة (*).

أما الصورة في هذه الأيام فقد اختلفت في مواقفها وأبعادها عند البعض، فخرجت في

بعض صورها من دائرة الحيطة والاحتراس إلى التضييق والمنع من غير توازن ولا تفاهم، من باب من جهل شيئاً عاداه.

وبمراعاة هذه الميادين والمجالات، وإظهار ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله من وجوه الإعجاز العلمي تستمر إشراقات القرآن والسنة، ويستمر البناء العلمي والعطاء القرآني والنبوي، ويتم الانسجام والتناغم والتوافق بين الآيات القرآنية والحقائق الكونية، وبين كتاب الله المسطور وكتابه المنظور، وتنشأ البحوث والدراسات، وتوجد العقليات العلمية التي تبني الأمم وتقيم الحضارات.

المطلب الثاني
مواقف العلماء من الكشوفات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم

لقد تنوعت مواقف المفسرين في عصرنا الحاضر حول جواز التفسير العلمي للقرآن الكريم وما يتعلق به من مسائل مثل التوفيق بين الكشوفات الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم، أو تفسير الإشارات الكونية في القرآن الكريم في ضوء العلوم والمعارف العصرية. كما تنوع الخلاف حول استعمال مصطلح الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وما به من محاذير، وطال الحوار والنقاش حول هذه القضايا، وتفاوتت مواقف العلماء فيها ما بين مانعين مضيقين، ومجيزين موسعين، ومجيزين متوسطين معتدلين، وهو ما سنحاول بيانه في المسائل والقضايا التالية:

القضية الأولى: التفسير العلمي ومسألة التوفيق بين الكشوفات الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم، وموقف العلماء منها:

أولا: فريق المانعين.

يرى أصحاب هذا الموقف (*) أن هذا اللون من التفسير هو نوع من التفسير بالرأي الذي لا يجوز، وأنه خروج بالقرآن عن الهدف الذي من أجله أنزل، وإقحام له في مجال متروك للعقل البشري يجرب فيه ويصيب ويخطئ، واعتبر هذا الفريق أن المنهج العلمي في التفسير جنوحٌ إلى الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية، استنادا إلى القول بأن القرآن لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا أسماء الكائنات وصفاتها، وإنما هو في الأصل كتاب هداية.

أدلة المانعين وحججهم:

١. أن ربط حقائق القرآن الثابتة المطلقة بالنظريات العلمية المتغيرة، يؤدي إلى اضطراب ثقة الناس بالقرآن الكريم، ويعرض القرآن الكريم للدوران مع مسائل العلوم التي لا تعـرف الثبات، ويرون أن ما يسمى بحقائق العلم، ليست سوى نظريات وفروض متغيرة غـير ثابتـة يبطل منها اليوم ما كان سائدا بالأمس، وربما يبطل في الغد مـا هـو سـائد اليـوم، وقـد يـدفع التفسير العلمي بعض أصحابه المتحمسين والمغرورين به إلى المبالغـة والمغـالاة وإدخـال كـل شيء تحت خيمة التفسير العلمي، ثم إلى التأويل المتكلف لـدلالات الـنص القـرآني، وتحميـل الآيات من المعاني ما لا تحتمله، بحيث يخرج التفسير العلمي إلى الشطط الذي يتنافى مع مكانة القرآن وطبيعته ولا يستسيغه الذوق السليم.

٢. من المبررات التي يستند إليها أصحاب هذا الموقف قوله عليه الصلاة والسلام: "من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ" وفي رواية "من قال في القرآن بغـير علـم فليتبـوأ مقعـده مـن النار"،[30] وإلى ما ورد على لسان بعض الصحابة مثل قـول أبي بكـر الصـديق رضي الله عنـه: "...أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم".[31]

٣. أن القرآن الكريم نزل كتاب هداية ربانية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، ولم ينزله الله ليكون كتابا يتحدث فيه الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون، والإشـارات العلمية التي وردت فيه جاءت في مقام الإرشاد والموعظة، لا في مقام البيان العلمي التجريبي، وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التدبر والتفكر، وإمعان النظر في خلق الله، لا بهدف الإخبـار العلمي المباشر.

مناقشة الأدلة:

وفيما يلي نوجز مناقشة هذه الأدلة وتقريب وجهات النظر فيها إلى الصواب، لتجاوز الخلاف إلى ما هو أفضل وأكمل، للوصول إلى ما عليه العمل والفهم الجماعي و(الجماهيري) من أهل العلم والعقلاء والهيئات والمؤسسات المتخصصة في هذا المجال.[32]

الحجة الأولى:

أما قولهم إن التفسير العلمي تفسير بالرأي، فإن المقصود بالرأي في الحديث هو (الهوى) لا الرأي المنطقي القائم على البرهان والحجة الواضحة، وأن ما قد ورد على لسان بعض الصحابة مما يوحي بالتحرج من القول في القرآن الكريم بالرأي والاجتهاد، إنما هو من قبيل الورع والتأدب في الحديث عن كلام الله، وبخاصة وأنهم كانوا قد فطروا على فهم اللغة العربية وفهم أسرارها، وعايشوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وأسباب النزول، فهل يمكن لمن توافر له كل ذلك أن يكون له مجال للاجتهاد بالرأي؟ إضافة إلى ذلك فإن التفسير بالمأثور لم يشمل القرآن كله، والمنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه، ولحكمة يعلمها الله ـ وقد ندرك طرفا منها اليوم ـ لم يقم الرسول عليه الصلاة والسلام ـ بالتنصيص على المراد من كل آية من آيات القرآن الكريم، ثم إنه من الثابت أن الصحابة الكرام كانوا يجتهدون في فهم ما لم ينص عليه، وكانوا يختلفون في ذلك ويتفقون، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصوب بعض آرائهم.[33] وقد دعا لابن عباس بقوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"،[34] ومن المعلوم أن فهم آيات القرآن، والمحاولات الجادة لتدبر معانيه ضرورة تكليفية يقررها الحق عز وجل بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] وهذا التدبر يتسع باستمرار باتساع دائرة المعرفة الإنسانية واستمرارها.

وقد شاء الله جل جلاله أن يكل الناس إلى أمور الكشف عن حقائق هذا الكون إلى جهودهم وتجاربهم جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر. ومن هنا جاءت الإشارات الكونية في القرآن الكريم بصيغة مجملة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني، وتظل المعاني تتسع في تكامل لا يعرف التضاد.

الحجة الثانية:

قولهم إن القرآن كتاب هداية، فهذا أمر مسلم به، والكل متفق على أن الهدف الأساسي للقرآن الكريم هو تبصير الناس بطريق الهداية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٩] ولكن مع اعتقادنا بأن القرآن العظيم كتاب هداية وإرشاد وليس كتاب طبيعة أو هندسة أو طب أو فلك...، فإنه في الوقت ذاته لم يخل من الحديث عن سنن الكون وحقائق العلم التي اكتشفها العلم الحديث، وأن نظرة سريعة إلى القرآن الكريم لتؤيد لنا كثرة هذه الآيات التي تحدثت عن هذه الحقائق، والتي قدرها بعض الباحثين بسدس القرآن.[35] ومع اعتقادنا بأن القرآن كتاب هداية فإن الدعوة إليها جاءت بأساليب متنوعة، نظرا لاختلاف مشارب الناس في هدايتهم واختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، في قناعاتهم واقتناعهم، فالهداية والقناعة عند كثير من الناس تزداد وتتعمق بربط الآيات القرآنية بالحقائق العلمية، والأمثلة الحية تثير في النفس قدرا كبيرا من الاستحسان والإعجاب والقناعة. ولهذا جاء في القرآن الكريم من البراهين والأدلة والأمثال وقواعد الخطاب ما يناسب جميع الشرائح الاجتماعية ويعم مختلف العصور والبيئات إلى يوم القيامة ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩] .

وإذا أدركنا هدف القرآن ومنهجه في الخطاب الدعوي ـ الخطاب الإيماني والخطاب العالمي ـ أدركنا أن ورود الآيات الكونية المتعلقة بالأنفس والآفاق أمر بدهي، لأن بعض الناس ينصب جل اهتمامه على هذا الجانب، وقد يكون من العسير عليهم أن يتذوقوا الجمال البياني ويدركوا فصاحة القرآن وبلاغته، ولكنهم يدركون عن طريق هذه الحقائق الكونية والمعارف الإنسانية التي سبق القرآن الحديث عنها، أن القرآن من عند الله، فيذعنون لصدقه وتخبت له قلوبهم(*) لأنه لا يتصور أن هذه الحقائق يدركها بشر من ذاته ، لأن كثيرا منها لم يكتشف إلا في عصور متأخرة بعد التقدم العلمي، وبعد اختراع الأجهزة التي لم يكن للسابقين عهدٌ بها، ومن ثم يتضح بكل جلاء أن ورود هذه الحقائق المهمة في الوقت ذاته على لسان رجل أمي، لم تكن معروفة في زمانه، لتؤكد لهم أنه تلقاها من لدن عليم خبير ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦] .

وكتب التفاسير التي تعد بآلاف المجلدات باختلافها واتفاقها تشهد بكثرة البراهين والحقائق العلمية التي تحيط بها ألفاظ القرآن الكريم ونصوصه الجامعة، التي تتابع ظهورها جيلا بعد جيل، وقد ذكر ـ على سبيل المثال ـ الشيخ محمد رشيد رضا أمثلة متعددة على اشتمال القرآن الكريم على الهداية والإرشاد واحتوائه في الوقت ذاته على أصول الإعجاز بكل وجوهها (36) ثم ختم قائلا: "فكتاب الله تعالى مظهر لقوله سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] وقوله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] .

وقد أشار إلى مثل ذلك الطاهر ابن عاشور في تفسيره.(37)

الحجة الثالثة:

قولهم إن الربط بين حقائق القرآن الثابتة المطلقة والنظريات العلمية المتغيرة يؤدي إلى

اضطراب الثقة بالقرآن واهتزازها، فهذه حجة فيهـا نظـر وتحتـاج إلى تحريـر ومراجعـة ، لأن الربط يجب أن يكون بين الحقائق العلمية والاكتشافات الصحيحة الثابتة وبين صريح القـرآن الكريم، ومن المستحيل أن يكون هناك تعارض بين صريح المعقول وصحيح المنقول، وقد قرر ابن تيمية أنه لابد من توافق الصريح في كل علوم العقل مع الصحيح من كـل أقـوال النقـل، وإذا حدث تعارض فهذا يعني أحد أمرين: إما أن العلم العقلي غير صريح فهو ليس علما بـل هو ظنون غير متيقن منها، وإما أن القول المنقول ليس ثابتا فهو ليس من الإسلام.(38)

وقد تكون هناك محاولات خاطئة لفهم آيات من كتاب الله، فإن هذه الأخطاء تعود على المفسر نفسه ولا تنسحب على كلام الله أبدا، ولا تنال من قداسته، فالذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا وكذلك الذين فسروا بالتاريخ....ويبقى التفسير جهدا بشريا منسوبا لصاحبه بكـل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال، وإذا كان عدد من الذين اجتهدوا في تفسـير الآيـات قـد جاوزوا الصواب، فإن أعدادا أوفر وفقت إليه.

ويمكننا القول أيضا أن كل ما كشف الخطأ عنه وأنه من التعسف في تفسير النصـوص، والتكلف في فهمها يبقى في دائرة الفرضيات والمحاولات الشخصية التي تتلاشى بما هو أقوى منها، لأن البقاء للأصلح، وحسبنا، وما صح من هذه التفسيرات وثبت أنـه حـق، يصـبح في عداد الحقائق العلمية الثابتـة والتفسـيرات المسـتقرة، التـي تزيـد ا لقـرآن انكشـافا والحقيقـة استمرارا، وبهذا لا نضيف متسعا في هذه المسألة.

وأن ما نشأ هذا اليوم من التطابق العجيب والتوافق المدهش للعقول بين النص القـرآني وبين الحقائق والمكتشفات العلمية الحديثة الصحيحة الناتجة عن بحوث المتخصصين المتلاحقة في مختلف حقول المعرفة، لا يمكن أن يكون صدفة، بل يؤكد معجزة القرآن الخالدة وإعجـازه المتجدد في كل زمان، ويكشف واقعيا وعمليا وتطبيقيا عن توافق حقائق الغيب الصحيح مـع

حقائق العلم الصحيح، وهذا دليل قاطع على أن التفكير الـديني الصـحيح لا يتعـارض مـع التفكير العلمي الصحيح، وأن غيب الدين الصحيح يختلف عن غيب الأسـاطير التـي تقـوم على الخيال والأوهام والظنون، أو غيب الديانات المحرفة، مع كون الجميع غيباً.(*)

وعندما يري الله تعالى عباده آية من آياتـه في الأنفـس والآفـاق، مصـدقة لآيـة في كتابـه الكريم، يتضح بها المعنى، وتتحدد بها دلالات ألفاظ النصوص بما كشف من حقـائق علميـة ثابتة، فهذا هو الإعجاز الذي لا يمكن مجاراته، والذي يعجز الناس أن يـأتوا بمثلـه، فكيـف يقال إن الربط بين حقـائق القـرآن والنظريـات العلميـة يـؤدي إلى اضـطراب الثقـة بـالقرآن واهتزازها؟!

أما قولهم إن التفسير العلمي يحمل أصحابه المندفعين إلى التأويل المتكلـف للنصـوص، فنقول قد وضع العلماء لهذا الأمر ضوابط تحدد مسار هذا التفسير وبحوث الإعجاز فيه، وفق الأصول الشرعية التي تبعدها عن الاستطراد والارتجالية، كما سنبين ذلك بعون الله.

ثانيا: فريق الغلاة الموسعين الذين تجاوزوا الحد

وهذا الفريق من الغلاة يضم مزيجا وخليطا من الألوان والاتجاهـات المختلفـة للتفسـير العلمي للقرآن الكريم، وألواناً من صور الإعجاز المتنوعة، التي تتميز بنزعة التلفيق والإفراط وتجاوز القصد، كما أنها تتعارض مع طبيعة القرآن، ولاشك أن الغلو في كل شيء يفسده، وفيما يلي بيان لبعض هذه الآراء والأفكار، والرد عليها.

أ. يتمثل في هذا الفريق لون من الذين بالغوا في النزعة العلمية، وقصروا الإعجـاز عـلى الإعجاز العلمي، ووضـعوا كـل جهـودهم في التركيـز عليـه، وتوسـعوا في صـوره ووجوهه المعاصرة. بحماس غير محمود وأقوال غير صحيحة. ويرى هذا القسم مـن

هذا الفريق أن الإشارات الكونية في القرآن الكريم، قد قصدت لذاتها، مع تسليمهم للوصول إلى الهداية عن طريقها، وانطلاقا من ذلك فقد قام أصحاب هذا الموقف بتبويب آيات الكونيات في كتاب الله، وتصنيفها حسب التقسيمات المعروفة للعلوم الطبيعية على اختلاف أنواعها، ثم اندفعوا في حماسهم لهذا الاتجاه، إلى المناداة بأن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولابد لفهم الإشارات الكونية في القرآن من تفسيرها في ضوء المصطلحات والمعارف العصرية، ثم زاد حماس البعض إلى القول أن جميع حقائق العلوم البحتة والتطبيقية التي استكشفها واستخلصها الإنسان اليوم، هي موجودة في القرآن الكريم، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الآية ٣٨ : الأنعام] وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية ٨٩ : النحل].

وعلى الرغم من حماس هذا القسم من هذا الفريق، وصدق مشاعره إلا أن جرأتهم الزائدة، أدت إلى دراسات غير محمودة وإلى نتائج عكسية، جعلت كثيراً من الناس يحملون عليهم، مثل طنطاوي جوهري في بعض نظراته في تفسيره: جواهر القرآن، وتفسير كشف الأسرار لمحمد الاسكندراني، والتفسير العصري للقرآن للدكتور مصطفى محمود، والتفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد نصري، ولا يخفى علينا كثير من الذين اشتطوا في المبالغة في هذا اللون من التفسير في كثير من المجلات، وقنوات الشبكات الإلكتونية في عصرنا الحاضر.

ولعل أصحاب هذا المنهج في تجاوزاتهم الغريبة، كانوا من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تحفظ البعض واحتراسهم من الدخول في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله تعالى على أساس من معطيات العلوم البحتة وتطبيقاتها، والحيطة في التعرض لإظهار جوانب

الإعجاز فيها، حرصا على إبعاد القرآن الكريم عن التعسف في تأويل النصوص أو إخضاعه للنظريات المتقلبة.

ب. وظهر في دوائر هذا الفريق اتجاه آخر من الغلاة، جنحوا إلى الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم وتفسيرها على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية، فحاولوا إخضاع التفاسير لخدمة مذاهبهم واتجاهاتهم ومللهم ونحلهم، إما عن عمد واضح أو جهل فاضح، فجاءوا بنماذج غريبة عجيبة، قد أفرزت نتاجا من التفسير لم يكن مستساغا ولا مقبولا لدى العلماء. مثل: **أساس التأويل للمغربي الإسماعيلي، ومزاج التسنيم في تفسير القرآن الكريم لإسماعيل بن هبة الله الإسماعيلي، وعرائس البيان في حقائق القرآن للشيرازي وغير ذلك من أمثال هذه الكتب المملوءة بالتفسيرات الإشارية والتصورات الباطنية والتحريف لمعاني القرآني** (*).

ج. ونرى في هذا الفريق صورا أخرى من الغلاة، وقسماً آخر، وهم الذين كتبوا في الإعجاز العددي، وإن كان لبعض مؤلفاتهم قوة في النظر والاستدلال وتسلسل في المنطق، إلا أن البعض الآخر أفرط وتجاوز الصواب فيه، فوظفوا الأعداد والأرقام التي لها علاقات ببعض الآيات القرآنية في تأويلات غريبة وآراء شاذة. مثل: **محمد رشاد خليفة في كتابه « عليها تسعة عشر » و« دلالات جديدة في القرآن الكريم» و فريد قبطي في كتابه « طلوع الشمس من مغربها» والدكتور عبد الله البلتاجي في كتابه «سر الوجود والرقم ١٩» وعبد الكريم الخطيب في كتابه « أسرار معجزة القرآن» وعاطف صليبي في كتابه « أسرع الحاسبين» والدكتور مأمون أبو خضر في سلسلة كتبه « بدأ العد التنازلي» والدكتور خالد العبيدي في كتابه « المنظار**

الهندسي للقرآن الكريم» وغير ذلك..، ومعظم الذين كتبوا في الإعجاز العددي غير متخصصين في الشريعة، وأكثر الذين وقعوا في الأخطاء منهم، وجد منهم من كان راغبا في الخير وخدمة كتاب الله تعالى، ومن كان مستور الحال غير معلوم التوجه والقصد، ومن كان سيء النية خبيث القصد مثل محمد رشاد خليفة. وينبغي أن يلاحظ أن معظم الذين ألفوا في هذا الجانب، قد وقعوا في عدد من الأخطاء التي تتفاوت في خطورتها، لذا ينبغي الحذر عند التعامل مع هذه المؤلفات، والتيقن من صدق النية وصحة التوجه، ووجود العلم الشرعي الكافي الذي يعصم من الوقوع في الزلل عند مؤلفيها، دون اغترار بما تحمله من العناوين والمضامين من عبارات براقة جذابة (**).

ورغم التسليم بوجود تناسق وتكامل وتوافق رائع وتناغم وانسجام معجز بين الأعداد والأرقام وبعض الآيات ودلالاتها في القرآن الكريم، لكنهم بالغوا في التأويلات البعيدة، وفي تحميل الألفاظ والأرقام أكثر مما تحتمل في حساب الجمل، لاستخراج إشارات ومعان للآيات، والتوصل إلى أقوال غريبة ومعلومات غيبية مستقبلية، والزعم أن هذا إعجاز، وأن هذا اكتشاف لأسرار القرآن الكريم، دون التزام بمنهج علمي صحيح يراعي الضوابط والقواعد في هذا التفسير.[39]

ولهذا فإن المبالغة في تقديس الأرقام، والاعتداد بنتائجها، وأنها من أعظم وجوه الإعجاز على الإطلاق، أمر غير جائز، وأن بعض الذين شغلوا أنفسهم في هذا المجال بعمليات حسابية معقدة، ورهق فكري، قد أتعبوا أنفسهم سنين عديدة في بحوث كانت طويلة الذيل قليلة النيل، وصلوا من خلالها إلى آراء تفسيرية غير مقبولة، وكذلك فإن استخدام حساب الجمل لاستخراج معلومات ودلالات وإشارات ومعان غيبية، هو أمر غير صحيح، لأن فيه تحميلاً

للنص أكثر مما ينبغي، ولئن جاز استعمال هذا الحساب في الآداب والشعر والتاريخ، فلا يجـوز استخدامه في التفسير والإعجاز، وخاصة إذا كان قائما على الهوى والرأي والاستقلال المذموم، والخطأ في منهج النظر في القرآن، والدخول إليه بمقـررات فكريـة سـابقة وتصـورات ضـالة وأهداف ومقاصد غير سليمة يراد تحقيقها.(40)

أما الذين كانت لهم محاولات وكتابات جادة في الإعجاز العددي، وكانت لمؤلفاتهم قوة في النظر والاستدلال، فتعتبر جهودهم في هذا الميـدان، وجهـا مـن وجـوه الإعجـاز العلمـي بمعناه الواسع، فقد أبانت جهودهم بحق، عن هذا التوافق والانسجام، وكشفت النقاب عن كثير من المسائل في هذا الموضوع، وقدمت أدلة قوية أخرى على أن كلام الله تعالى محفوظ مـن التبديل والتغيير على مر العصور، ولـذا فـإن التحسـس أو الـتحفظ مـن اسـتعمال مصـطلح الإعجاز العلمي أو الإعجاز العددي واسـتبداله بمصـطلح الـدلائل العلميـة أو التوافـق أو التناسب العددي في القرآن الكريم، واعتباره في نظر البعض ذا منهج أضبط وأسلم، حتـى لا يتوسع الناس في الأخطاء فيه، ـ فإنه وإن كان لهذا الرأي اعتبـاره ووجهتـه مـن حيـث تحريـر الألفاظ... ـ إلا أن استعمال مصطلح الإعجاز العلمي أو العددي في تقـديري مـنهج أرجـح وأمثل، وذلك لما تقتضيه المستجدات وما يحقق من أهداف، وما له مـن أثـر في الحيـاة العلميـة والدراسات المتخصصة، والمسـتقبل العلمـي كفيـل بتحقيـق النتـائج الصـحيحة وتصـويب الصواب، وتجاوز الأخطاء وترجيح الأفكار الراجحة والبقاء للأصلح كما يقال.

من الذين نحو منحا معتدلا في هذا المجال وكان في كتابـاتهم لطـائف معقولـة مقبولـة، وفيها توافقات لبعض الأرقام دون مبالغة، ما كتبـه الـدكتور صـلاح الخالـدي تحـت عنـوان "التناسق العددي في البيان القرآني" في كتابه "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني" من ٣٢٨-٣٣٧، والدكتور أحمد نوفل في "تفسير سورة القصص" والـدكتور عبـد الـرزاق

نوفل في كتابه "الإعجاز العددي للقرآن الكـريم" و"معجـزة الأرقـام والترقـيم في القـرآن الكريم" وبديع الزمان النورسي في "المكتوبات" ورضوان سعيد فقيه، في كتابه "الكشـوف في الإعجاز القرآني" وصدقي البيك في كتابه "معجزة القرآن العددية" وهو مـن أجـود مـن كتب في ذلك، وبسام جرار رغم ما له مـن التجـاوزات إلا أن لـه بعـض الموافقـات المقبولـة وبعض الكلام الجيد، والكمال لله وحده.

ثالثا: فريق المجيزين أصحاب الموقف المعتدل الوسط

ويرى هذا الفريق بمنهجيته المتوازنـة، أن التوفيـق بـين الاكتشـافات العلميـة الحديثـة ودلالاتها في القرآن الكريم، وأن التفسير العلمي للقرآن الكريم وكل وجوه الإعجاز الشائعة اليوم، التشريعي، والنفسي والتاريخي والتربوي...، تعتبر فتحا جديدا للفكر الإسلامي، وثراء للمعرفة، وإعجازا متجددا لرسالة القرآن الخالدة وسطوعا لبيناته، وبابا من أبواب الدعوة إلى الله، ومدخلا لهداية الناس وتقوية لإيمانهم، إذا اتبعت فيه الخطوات المتزنة الثابتة لأهـل العلـم من هذا الفن، وابتعد فيه عن التكلف والتزمت فيه الشروط والضوابط التي تسد البـاب أمـام الأدعياء والمتسرعين.

ويرى هذا الفريق أن المنع والتضييق لمجال البحث في وجـوه الإعجـاز الشـائعة اليـوم، يؤدي إلى التفريط في كثير من الآيات وعدم إعطائها حقها من التدبر والدراسة، كما يـؤدي إلى منع الدعاة من حمل سلاح، هو من أمضى الأسـلحة في العصرـ الـراهن، هـذا السـلاح الـذي يترتب عليه كثير من الثمار والآثار مثل ترقية الإيمان المعرفي والعملي عند الناس، لطبيعة الحيـاة العلمية التي يعيشونها اليوم، وإقامة الحجة على المعاندين الذين اغتروا بـما لـديهم مـن العلـم، وإثبات ربانية القرآن الكريم وصدق نبوة سيد المرسلين.

ومن أمثلة هذا الفريق، الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار، والشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير، وسيد قطب في الظلال حيث يشير إلى كثير من الحقائق القاطعة المذهلة في تفسيره لبعض الآيات الكونية، وكذلك الدكتور زغلول النجار رافع لواء هذا الاتجاه في سلسلة كتبه (من آيات الإعجاز العلمي) التي تقع في سبعة أجزاء، الأرض في القرآن، الجبال في القرآن، النبات في القرآن، السماء في القرآن، وهكذا..، وكذلك الشيخ عبد المجيد الزنداني في رسائل تثبيت الإيمان، وفي سلسلة كتبه توحيد الخالق، وما صدر له عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في مكة المكرمة، ويعتبر الشيخ الزنداني في هذا الباب أكثر دقة من غيره، وكلامه جيد مضمون منصف، لأنه ينطلق به من مجامع علمية يؤمن منها الخطأ والخلل، وكذلك الدكتور فضل عباس في كتابه إعجاز القرآن الكريم، والدكتور صلاح الخالدي في كتابه إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، والدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر في كتابه هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم، وكتابه (الظواهر الجغرافية بين العلم والإيمان، ومعظم التفاسير المتخصصة المعاصرة قد أنصفت هذا الموضوع وانتصرت له.

من أدلة المعتدلين وحججهم.

١ ـ حصر الإعجاز في الإعجاز البياني وتقيده بالتحدي فيه نوع من التضييق لأمر فيه متسع.

وهذه الحجة سنرجئ الحديث عنها الآن، لنبسط القول فيها حين نتناول القضية الثانية بعد قليل.

ب ـ الإعجاز فيه معنى التحدي بالمعنى الواسع لمفهوم التحدي والإعجاز. يرى هذا الفريق أن كون القرآن الكريم تحدى العرب بالإعجاز البياني فقط دون غيره، ليس معنى ذلك أنه لا يوجد إعجاز علمي ثانٍ أو أي إعجاز من نوع آخر، فالقرآن وإن لم يستعمل مصطلح

الإعجاز العلمي فإنه لا يمنع من استعماله طالما أنه في دائرة المباحات، والمسالة تتسع له والأمر يقتضيه باعتبار مراميه وفحوى آيات القرآن ودلالة معانيها.

والأمر لا يتعارض مع القرآن الكريم، بل يتناغم معه ويكشف عن معجزاته المخبوءة، لتظهر في كل عصر وحين، فأكثر الباحثين - مثلا - يركزون على استعمال (مقاصد الشريعة) مع أن القرآن لم يستخدم هذا المصطلح، ومع ذلك لم يقل أحد أنه لا يجوز استخدامه.

وكما لا يخفى على أحد، ما لمعرفة قواعد اللغة وأصولها، المتمثلة في الألفاظ وفهم دلالاتها ومعانيها، من أثر على تذوق بلاغة القرآن وفصاحته، وما لها من أثر في الكشف عن إعجاز آيات القرآن الكريم وفهم حكمها وأحكامها وبيانها وأسرارها وكذلك فإنه لا يخفى على أحد ما للتقدم العلمي والاكتشافات الحديثة من أثر بالغ في الكشف عن الإشارات الكونية في القرآن الكريم وما تنطوي عليه من إعجاز، وتفسيرها تفسيرا يزيد من فهمها واستقرار معانيها، ويظهر من وجوه إعجازها المتنوعة. إن الاكتشافات العلمية الحديثة، إذا كان رائدها علماء يتقون الله ويربطونها بالمقاصد والغايات الربانية، تعتبر بشرى ورحمة من الله، تبين عما في آيات القرآن من خير وتستخرج من جنانها ثمرات علمية شتى، وتستمطر بعون الله وتوفيقه ما تحمله هذه الآيات من مزن المعرفة، لتنبت من مائها للحياة البشرية والحضارة الإنسانية من كل زوج بهيج.

وأصحاب هذا الموقف لا يعتبرون وجوه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، إعجاز تحدٍّ، بمعنى أن يأتي الناس بمثلها من حيث هي مكتشفات ومخترعات، فالمكتشفات والمخترعات ليست خارقة للعادة، ولكنها أمور كسبية لها قوانينها وسننها العامة المحايدة، ومن تعلمها وتفرغ لها حقق نتائجها. ولكن وجه التحدي والإعجاز العلمي في ما أشارت إليه الآيات القرآنية يكمن في أبعاد كثيرة من أهمها:

أ- سبق القرآن الكريم في الحديث عنها وعن حقائقها وقوانينها، والإشارة العلمية إليها قبل أن يعرفها أحد.

ب - توافق الحقائق القرآنية مع الحقائق الكونية، وموافقه صحيح منقولها لصحيح معقولها في مختلف التخصصات والتطبيقات، والاكتشافات الحديثة.

جـ - من حيث كمالها وجمالها وإحكامها وحكمها، والسنن الربانية التي تحكمها، ومن حيث كشف الغيب عنها، فهي معجزة باعتبار الحال التي يتعذر به على البشر الإتيان بمثلها. وما تتميز به من تفرد معجز. وانظر إلى جانب الإعجاز العلمي، الذي فيه معنى التحدي والعجز، كم هو واضح هذا في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ **[المُلك: ١-٤]** أي مذعن، طائع، عاجز، منقاد، ذليل، خاضع، مستسلم...وغير ذلك من الألفاظ التي تحمل معنى التحدي والإعجاز والعجز، وتوصلنا إلى نتيجة واحدة، سواء عند من قال بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم أو نفى هذه التسمية، واعتبر موضوعها وما اشتمل عليه القرآن من حقائق علمية وكونية نوعا من الدلالات العملية.

وفي تقديري أننا لو اتفقنا على معنى التحدي بالمفهوم الواسع لمعنى التحدي والإعجاز، والذي يعني: تعذر البشر فصحاء وعلماء وعامة، الإتيان بمثل القرآن في أسلوبه البياني أو أخباره الغيبية أو أي من وجوه إعجازه الأخرى. فإن هذا المعنى يتسع للجميع، وعلى هذا فإنه ليس بلازم أن يرتبط تعريف أي وجه من وجوه الإعجاز بمفهوم التحدي، بقدر ما تؤكد على

ارتباط التعريف بعجز البشر وضعفهم وتعذرهم عن الإتيان بأي وجه من وجوه الإعجاز وصوره التي جاءت في القرآن الكريم.

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن القرآن تحدى العرب خاصة، بالبيان لأنهم كانوا على مستوى التحدي وكان البيان لغتهم، والقرآن اليوم في عصر العلم يعجز الناس جميعا باللغة التي يفهمونها والزوايا والموضوعات التي تهمهم، وبخاصة الذين فرحوا واغتروا بما عندهم من العلم، وبهذا يكون مخزون الإعجاز البياني ومخزون الإعجاز العلمي، طريقين متوازيين في إثبات الحجة البالغة القاهرة للقرآن الكريم.

٣ـ معجزة كل نبي كانت تنتهي بانتهاء عصرها، ومعجزة القرآن الكريم معجزة خالدة متجددة، والتحدي بها قائم بها على مدى الزمان.(*)

ولقد نال القرآن الكريم شرف هذا الخلود بما اشتمل عليه من براهين وصور الإعجاز ووجوهه التي لا تنتهي ولا تخلق على كثرة الرد، فمعجزة القرآن الكريم قضية أبدية خالدة، وليست تاريخية مؤقتة، والقرآن معجزة أبدية بكل ما يحتويه من صور الإعجاز، وما الإعجاز العلمي إلا من صور إعجازه الكثيرة وأن التحدي للإتيان بمثل القرآن وما اشتمل عليه من صور الإعجاز، ما يزال قائما منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة، هذا إذا فهمنا التحدي والإعجاز بالمعنى الواسع الذي بيناه سابقا، والله أعلم.

وإن الإشارات العلمية والكونية في القرآن الكريم قد تم سردها في القرآن الكريم بصورة مجملة مراعاة لمقتضى الحال، وهذا بحق من أعظم صور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وذلك لأن كل إشارة علمية وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز والإحكام في الدلالة والشمول والمعاني، مما يمكن للناس على اختلاف ثقافاتهم وتباين مستوياتهم وإدراكهم، وتتابع أجيالهم وأزمنتهم، أن يدركوا لها من المعاني ما يتناسب وهذه

الخلفيات كلها، بحيث تبقى المعاني المستخلصة من الآيات، يكمل بعضـها بعضـا، في تناسـق عجيب وتكامل لا يعرف التضاد، وهذا من أروع صـور الإعجـاز في كتـاب الله عـز وجـل. فالإجمال في تلك الإشارات، مع وضوح الحقيقة العلمية للأجيـال المتلاحقـة، كـل عـلى قـدر نصيبه وحظه من المعرفة بالكون وعلومه، هو بحق شيء فوق طاقة البشر وقدراتهم، وصـورة من صور الإعجاز لم تتحقق ولا يمكن أن تتحقق لغير كلام الله جل جلاله، ومن هنا كان فهم الناس للإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم على ضوء ما يتجمع لـديهم مـن معـارف، فهما يزداد اتساعا وعمقا جيلا بعد جيل، وهذا في حد ذاتـه شـهادة للقـرآن الكـريم بأنـه "لا تنتهي عجائبه" ولا يبلى على كثرة الرد، كما وصفه عليه الصلاة والسلام.

وانظـر مـا أوضـح هـذا المعنـى لمفهـوم الإعجـاز والعجـز بمعنـاه الواسـع، في كلمـة "عجائب"! التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليـه وسـلم، إذا مـا تأملنـا في فقـه الكلمـة ودلالاتها اللغوية في القرآن الكريم.[41] وفضل الله واسع يؤتيه من يشاء، ويفتح للناس من هذا الفهم وهـذا الإعجـاز ومـن طاقـات نـوره وخزائنـه، مـا يتناسـب ومسـتوياتهم وأزمنـتهم وحاجاتهم، وانظر إلى هذا المعنى ما أوضحه أيضا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

القضية الثانية: الاختلاف في استعمال مصطلح الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

لقد وقع الخلاف حول جواز استعمال مصـطلح الإعجـاز العلمـي في القـرآن الكـريم، فموقف الذين اعترضوا على استخدام هذا المصطلح يقوم على الحجج التالية:

١. أن مفهوم الإعجاز العلمي لا ينطبق عليه أركان المعجـزة حسـب التعريـف الـذي اصطلح عليه لمعنى المعجزة الذي ذكرناه.

٢. تخصيصهم للإعجاز بالإعجاز البياني، واعتبارهم الوجوه الأخرى نوعاً من الدلالات على إعجاز القرآن الكريم، فالإعجاز في نظرهم أصله وموضوعه مقرون بالتحدي، والقرآن تحدى العرب فعجزوا عن ذلك ، ولم يتحداهم بالعلم أو بأي وجه من وجوه الإعجاز الأخرى التي شاعت في هذا العصر، والتحدي العلمي لم يرد له ذكر في كتاب الله بالمعنى المعاصر والشائع اليوم، ولهذا رفضوا هذا المصطلح، ولم يعترفوا باستعماله.

ويرى أصحاب هذا الموقف أن الإعجاز في القرآن الكريم جاء وليد نسب القرآن الكريم إلى الله تعالى، وليس إلى تحليل الآيات وتعليلها، فإعجاز القرآن في نظرهم كلي وليس جزئياً، والقرآن معجز على الحقيقة لا على التعليل، والمعادلة عندهم أن القرآن معجز فهو كلام الله، وليس القرآن معجز لأنه كلام الله،[42] والقرآن في نظرهم لا يحتاج إلى تأكيد، ولكنه مؤكد لغيره، فلا يجوز في نظرهم أن نؤكد على صحة عبارة أو لفظة قرآنية بقول شاعر أو بكلام عالم، فما دام القرآن من عند الله، فهو حجة على كل شيء وفوق كل شيء، هكذا فهموا القضية من زاوية واحدة اتفق عليها الجميع.

مناقشة الأدلة والحجج

نظرا لأن كثيرا من هذه الآراء والأدلة قد تطرقنا إليها في ثنايا حديثنا فيما سبق من موضوعٍ ومسائل، فسوف نقتصر على مناقشة الحجتين الرئيستين والإجابة عنهما فيما يلي:

الحجة الأولى:

التي لا تميل إلى استخدام مصطلح الإعجاز العلمي لأنه لا ينطبق عليه تعريف المعجزة والإعجاز من حيث اللغة، والأركان التي يقوم عليها تعريف المعجزة.

فنقول وبالله التوفيق، إن ما اصطلح عليه من تعريف لمعنى المعجزة وليد التطور

الكلامي لمفهوم المعجزة والإعجاز كما ذكرت ـ فهو مصطلح جديد على الفكر الإسلامي، وقد درج الاستعمال في خير القرون على استخدام مصطلح الآيات للدلالة على المعجزات، وهو المصطلح الذي أصله وأكده القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾الإسراء: ١٠١ كذلك استخدمت السنة المطهرة اللفظ نفسه، قال عليه الصلاة والسلام: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".(43) فالتزام منهج القرآن والسنة في تأصيل المفاهيم والمصطلحات أولى في النظر، مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية المصطلحات الجديدة وانسجامها مع مفاهيمنا، وعدم التضييق بها على تصوراتنا.

والمعجزة حسب التعريف الذي ذكرناه لها ثلاثة أركان:

الأول: حدث خارق للعادة. الثاني: تحدي الناس المعاصرين بهذا الأمر الخارق. الثالث: عجز الناس المعاصرين عن المعارضة.

ولو طبقنا مصطلح المعجزة على معجزات الأنبياء لوجدنا كثيرا من المعجزات لا تندرج تحت ذلك المصطلح بأركانه الثلاثة، ولو أخذنا سيدنا موسى عليه السلام كمثال على ذلك، فنجد أن هذا المصطلح بأركانه الثلاثة ينطبق فقط على معجزتين من المعجزات التسع وهما العصا واليد، فهما اللتان تحدى بهما موسى فرعون، وهما اللتان عجز الناس عن معارضتهما، قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ١٧- ٢٤].

أما المعجزات السبع المكملة للمعجزتين السابقتين التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام والتي أشارت إليها آية الإسراء، فهي: الدم، والضفادع، والقمل، والجراد، والجدب، ونقص الثمرات، والطوفان، فلم يقصد بها التحدي، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ **[الأعراف:١٣٣]** هذا مع العلم بأن الله تعالى أجرى على يدي موسى عليه السلام معجزات شق البحر لإهلاك فرعون وجنوده، ومعجزة إهلاك عدد من رجال بني إسرائيل ثم إحياؤهم، ومعجزة رفع الطور فوق بني إسرائيل، ومعجزة ضرب العصا في الأرض لتفجير اثنتي عشرة عينا من أجل أن تشرب أسباط بني إسرائيل، ودعوتهم إلى أخذ الميثاق بقوة، وقد وردت آيات متعددة عن تلك الوقائع في القرآن الكريم، ومن الواضح أن الله أجرى هذه المعجزات على يدي موسى لحكم متعددة منها: زيادة يقين بني إسرائيل بنبوة موسى عليه السلام، وحضهم على تنفيذ تعليمات التوراة، وإجزال النعم عليهم من أجل تعميق إيمانهم بالله تعالى..الخ.

ولو طبقنا مصطلح المعجزة على ما أجراه الله تعالى على يدي رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم لوجدناه ينطبق على معجزة واحدة من معجزاته صلى الله عليه وسلم، وهي معجزة القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [الآية ٢٣ : البقرة].

أما معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم الأخرى الكثيرة من مثل الإسراء والمعراج وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين يديه، وتكثير الطعام القليل، وتكليمه الشجر والحجر..إلخ، فلا ينطبق عليها مصطلح المعجزة، لأنها لم يقصد بها تحدي المدعوين، وإنما كانت لحكم متعددة أبرزها التسرية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتثبيت المؤمنين وزيادة إيمانهم بدعوة الإسلام وزيادة يقينهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

الحجة الثانية: تخصيصهم للإعجاز بالإعجاز البياني، وحصرهم إياه في وجه واحد، لأنه وحده الذي وقع به التحدي:

فيمكننا في مناقشة هذه الحجة أن نقف مع الآيتين التاليتين، قوله عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣]، فإن المثلية المطلوبة، والتحدي بها في كل شيء، ويطلب الدليل من المخصص، أي فهي عامة، في البلاغة وفي العلم والمعرفة وفي الإخبار والقصص وفي كشف النفسيات وبيان حقائق القلوب وفي دقة التشريع وحل المشكلات وفي تفسير التاريخ وحركة الكون..إلخ. وهذه الآية ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ رغم أنها تفيد التحدي بالكل، إلا أنها تفيد التحدي بالجزء، بناء على قولهم: مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً، فهذا القرآن كله معجز، يعني كل سورة فيه معجزة، وكل سورة فيها نسبة من التحدي والإعجاز، لأن التحدي الكلي في الحقيقة جامع للتحدي الجزئي.

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود:١٣] فالتحدي وقع بالنظم ومحتوى النظم والمثلية هي مثلية النظم، والافتراء في محتوى النظم. أما في باقي الآيات فكان التحدي غير منفصل، فلما أن كان التنزل والمسايرة الواردة في الآية يَفصِل محتوى النظم، كان التحدي في غيرها محتوياً على ذلك. ومما جاء به القرآن الكريم واحتواه، الكشوف العلمية، فهي متضمنة لمعنى الإعجاز والتحدي.

ويقول الشيخ فضل عباس: إن المراحل الثلاث الأولى مختلفة من حيث الأسلوب عن المرحلة الرابعة وإليكم بيان ذلك:

المرحلة الأولى: "فليأتوا بحديث مثله"

المرحلة الثانية: "قل فأتوا بعشر سور مثله"

المرحلة الثالثة: "فأتوا بسورة مثله"

أما المرحلة الرابعة فجاء الأسلوب فيها "فأتوا بسورة من مثله" فكلمة (من) لم تذكر إلا في المرحلة الرابعة.

فإذا كان التحدي في المراحل الثلاث المخاطب به العرب -والعرب كان البيان بضاعتهم والبلاغة سجيتهم- خالية من كلمة (من)، فإن المرحلة الرابعة المخاطب بها الناس جميعاً عربهم وعجمهم، جاءت مشتملة على هذا الحرف الدال على التبعيض.

ثم يقول: وبعد هذه الدراسة نقرر أن وجوه الإعجاز متعددة .[44]

والناظر في دراسة الأستاذ نعيم الحمصي يصل إلى نتيجة تكاد تكون إجماعا بين العلماء على عدم حصر الإعجاز في الإعجاز البياني، وهذا من أوضح الدلالات على عموم الإعجاز.[45]

وخلاصة القول: إن تقييد الإعجاز بالتحدي شرط ليس على إطلاقه، وإن خطاب القرآن معجز ليس بالبيان وحده، ولكنه معجز بآياته وبيانه وبيناته وبراهينه وبصائره وسلطانه، ولسان حاله ولسان مقاله، وبكل وجوهه وصوره المتنوعة. وإن جاز لنا أن نقول: إن الإعجاز البياني في القرآن إعجاز مقال، فإن الإعجاز العلمي في القرآن إعجاز حال، والقرآن وإن لم يتعرض للإعجاز العلمي بلسان المقال، لكن هذا الإعجاز في بلاغته، ومتمددا ومنتشرا في آيات القرآن الكريم ومضامينه بلسان الحال،[*] لأن من حكمة الله تعالى وبلاغة كتابه، أن يأتي خطابه مناسباً لما برع به قوم كل نبي في كل زمان، (مراعاة المقال لمقتضى الحال) كما يقول أهل البلاغة في تعريفها، وهذا في حد ذاته (إعجاز إيجاز) وبناء على فهم قول علي ابن

أبي طالب رضي الله عنه: "حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله"،[46] أرأيت كيف أن كثيرا من الناس لم يصدقوا بحادثة الإسراء والمعراج واعتبروها زعما من رسول الله، لأنها كانت فوق عقولهم ونطاق مداركهم وتصوراتهم. وانظر ما أوضح هذا المعنى في أسلوب القرآن الكريم ـ على سبيل المثال ـ في قوله عز وجل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ **[النمل: ٨٨]** فقد مس القرآن الكريم مسألة حركة الأرض ودورانها مسا خفيفا لطيفاً وأشار إليها إشارة خفية. فكيف لو أفصح القرآن عن تلك الحركة لأناس لا يستوعبون ولا يفقهون الحديث في مثل هذه الأمور؟! ولهذا اختلف علماء التفسير من الرعيل الأول في فهم هذه الآية، فظن كثير منهم أنها تتحدث عن مشهد من صور يوم القيامة، ولم يتفطن إلى فهم هذه الآية فهما علميا صحيحا إلا الإمام الزمخشري،[47] في زمانه، فيما أعلم.

وبعد هذا التوضيح، نرجو الله عز وجل أن نكون قد وفقنا في إزالة وتسوية كثير من الشكوك التي تحوم حول استخدام مصطلح الإعجاز العلمي، والإجابة على التحفظات التي تقيد الإعجاز بالتحدي وتحصره في البيان.

والواقع أن العالم كله أذعن واستسلم أمام بيان القرآن وهيبته ونظمه وإعجازه البلاغي على مدى خمسة عشر قرنا، حتى أصبح الإعجاز البياني أمرا مسلما، وأن العالم بأسره لا يستطيع أن يأتي بمثله، وأن المحاولات التي جرت في عصرنا لمحاكاة القرآن محاولات سقيمة أثبتت فشلها وتهافتها.[**] ولاشك أن جمال القرآن البياني لا ينتهي، وأن استكشافه يستمر بجماله، ويخلد بخلود القرآن الكريم.

وإذا كان العرب في عهد الرسالة قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، مع أن فصاحتهم وبلاغتهم قد بلغت مداها، فمن باب أولى أن من بعدهم من سائر الأعصار أعجز منهم.

إذاً فالتحدي في الكل على جهة واحدة، ولا حاجة إلى التفريق في الإعجاز والتحدي، بأن الإعجاز قائم في كل زمان، أما التحدي فمخصوص بأهل العصر الأول.

فالأولى والذي ينبغي أن نوجه إليه جهودنا وأنظارنا مع تمكننا من الوقوف على وجوه البلاغة والبيان للقرآن الكريم ـ أن نتحدث بلغة عصرنا ونعرف مشارب الناس وأساليب إقناعهم امتثالا لقوله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ **[إبراهيم: ٤]** وأن نبرهن للعالم أن القرآن الكريم كلام الله وأن محمدا رسول من عند الله، باللغة التي يفهمها، ومن خلال (الإعجاز المتجدد) سيكون بعون الله للإعجاز العلمي دور طلائعي في دعوتنا، وفي بناء أفكارنا وتنمية مجتمعاتنا وتقدم حضارتنا، فعلماؤنا وباحثونا المؤمنون مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى، أن يكونوا على مستوى عصرهم التقني، والمعلوماتي، وعلى مستوى فهم دينهم وقرآنهم. لاستثمار هذا الإعجاز وتجديده، ومعرفة الكيفية التي يمكنهم بها توظيف نعم الله وسننه وآياته بالشكل العلمي المتكامل والفهم الصحيح، والنظرة الكلية الشمولية، ليظل العلم وتقنياته في خدمة القرآن العظيم.

المطلب الثالث

القواعد والضوابط الشرعية للتعامل مع الحقائق العلمية في القرآن والسنة وكشوفاتها الحديثة

يحسن بنا ونحن نتحدث عن هذه القواعد والضوابط التي تحدد مسار التعامل مع الحقائق العلمية في القرآن والسنة وكشوفاتها الحديثة، وتعين على معرفة العلاقة الصحيحة في بحثها ودراستها، أن نتناول في حديثنا هذا ثلاثة أمور، باعتبارها في أصلها ذات موضوع واحد، وذلك ليسهل علينا دراسة هذا المطلب والإلمام بمسائلة قدر المستطاع.

الأمر الأول: الأصول العامة للتفسير المتفق عليها عند العلماء المسلمين.

الأمر الثاني: قواعد التوفيق بين النص والاكتشافات العلمية الحديثة.

الأمر الثالث: ضوابط استخراج وجه الإعجاز العلمي من النص القرآني والنبوي.

كما يحسن بنا في بداية حديثنا في هذا المطلب أن نوضح المراد بالقواعد والضوابط، ثم نعرف بالحقيقة العلمية، ثم نفرق بين الفرض والنظرية، ثم نشير إلى أهمية القواعد والضوابط الشرعية في التوفيق بين النص والاكتشافات العلمية الحديثة، وذلك على النحو التالي:

المراد بالقواعد:

نص كلي موجز جامع لفروع في موضوعات شتى.[48]

والفرق بين القاعدة والضابط، أن القاعدة تجمع فروعا من أبواب شتى، والضابط يجمعها في باب واحد، فالقاعدة أعم من الضابط. ولكن الذي نقصده بهذه القواعد في هذه الدراسة: أنها بمثابة صياغات عامة وعموميات ومسلمات شرعية متفق عليها تجمع أفكارا شتى في موضوعات الإعجاز والتفسير العلمي للقرآن الكريم والسنة المطهرة.[49]

المراد بالضوابط:

أصول كلية تضبط فروعا تدور في باب واحد، أو أمور كلية جامعة لأشتات وفروع تختص في باب معين.[50]

ولكن الذي نقصده بهذه الضوابط في هذا المقام، هي تلك المفاهيم المقررة والشروط التي تحدد مسار بحوث الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن والسنة، وفق الأصول الشرعية، مع الالتزام بالجوانب الفنية والعلمية المطلوبة.[*]

الحقيقة العلمية: الحقيقة العلمية في الاصطلاح هي المفهوم الذي تجاوز المراحل الفرضية والدراسات النظرية حتى أصبح ثابتا مجمعا عليه من قبل كافة العلماء والمختصين،[51] مثال ذلك:

تمدد المعادن بالحرارة وتقلصها بالبرودة، وتبخر الماء بالحرارة وتجمده بالبرودة. أو هي ما يثبت ثبوتا قاطعا في علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة. والحقيقة العلمية لا تبطل مع الزمن أبدا، ولكنها تتسع وتنمو بنماء جهود العلماء المتتابعة، لأن من خصائص المعرفة المكتسبة أنها تراكمية تتسع جيلا بعد جيل. فالحقائق العلمية والقوانين التي تحكمها، ما هي إلا تعبير عن السنن الربانية في الكون، تصف علاقات محددة، وتعلل ارتباط العناصر الكونية بالظواهر الكونية تعليلا سببيا. وهذه السنن والحقائق والقوانين الكونية ما هي إلا جزء من المعادلات الربانية، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وما هي إلا جزء من الحكمة التي هي "ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها". كما أخبر بذلك الرسول عليه السلام.[52]

تعريف الفرض والنظرية:

الفرض: هو تخمين أو احتمال واستنتاج مبدئي، يصوغه ويتبناه الباحث مؤقتا، لشرح وتفسير وتعليل بعض ما يلاحظه من الحقائق والظواهر. ويعتبر الفرض من التعليلات والتفسيرات الأولية للظواهر الكونية.(53)

النظرية: هي معلومات توضح العلاقة بين العناصر والظواهر، وتفسر المتغيرات بين الأثر والسبب لمحاولة ضبطها وشرحها وتفسيرها، وقد تقترب أو تبتعد عن الحقيقة والصواب، فالنظريات مراتب بحسب قربها وبعدها عن الحقائق. وأقوى النظريات هي تلك التي تقدم شروحا أكثر احتمالية ومنطقية لتلك الظواهر العلمية في الكون، والتي تقدم أكثر الملحوظات والتفسيرات لعلاقة الأسباب بمسبباتها للوصول إلى القوانين التي تحكمها، ومن ثم يمكن استخدامها في مختلف التطبيقات العلمية والعملية في شتى المجالات والتخصصات.(54)

فالنظريات هي صياغات عامة لتفسير كيفية وقوع حدوث الظاهرات، كالنظريات المفسرة لأصل نشأة الكون وأصل الحياة.. (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) .

وقد مرت النظرية بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت إلى عدد من النظريات المقبولة التي يفضلون بها نظرية على أخرى، دون الادعاء بالوصول إلى حقيقة راسخة أو قانون قطعي. ويبقى للمسلم نور من الله في آية قرآنية أو حديث صحيح، يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة، لوجود إشارة لها في كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لأن هناك مجالات إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية، فإنه يضل فيها ضلالا بعيدا، خصوصا في الحديث عن نشأة الكون وما توصل إليه العلماء من فرضيات ونظريات في ذلك، ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ **[الكهف: ٥١]** فبعض النظريات لها من الإشارات اللطيفة في كتاب الله وسنة

رسوله ما يمكن للعالم المسلم من تفضيل نظرية على نظرية، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة لمجرد ذكر لها في كتاب الله تعالى، ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن والسنة للعلم وليس العكس. وعلى هذا لابد من ضرورة فهم الإشارات العلمية الواردة في القرآن والسنة النبوية على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولا، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة المقبولة التي يتجمع لدى العلماء من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورتها وتصحيحها بالاستناد إلى القرآن والسنة الصحيحة والفهم السديد.

أهمية القواعد والضوابط الشرعية في التوفيق بين النص والاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم:

١. تكمن أهمية القواعد والضوابط الشرعية في استخراج وجه الإعجاز العلمي من النص، والتوفيق بينه وبين الاكتشافات العلمية الحديثة، في كونها دلالات ومستندات استرشادية للباحثين في الإعجاز العلمي في القرآن، وخصوصا في هذا الوقت الذي كثر فيه إقبال الباحثين والكاتبين على هذا الموضوع لأهميته في الدعوة والإقناع، وذلك لتميز هذا العصر بالعلم التجريبي ومكتشفاته الحديثة، حتى أصبح العلم التقني سمة من سماته.

٢. الإسهام في علاج كثير من المزالق التي وقع فيها كثير من الباحثين في هذا المجال، حتى عند بعض المخلصين، لكي تنال الكتابات في هذا الموضوع الجديد الرضا والقبول.

٣. التزام هذه القواعد والضوابط يساعد كذلك على إنهاء الخلاف الفكري بين المؤيدين لموضوع التفسير العلمي والمعارضين له؛ لأن جوهر الخلاف بينهم يرجع سببه إلى تلك المظاهر الارتجالية التي لا يصدر أصحابها عن منهج صحيح.

٤. معالجة التحفظات المتعلقة باستخدام مصطلح الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وتجسير موضوعاته وفق الشروط العلمية والفنية والأصول الشرعية.

أما الآن فسوف نعود إلى تناول الأمور والمحاور الثلاث، التي ذكرناها لدراسة الموضوعات والقواعد التي تضبط العلاقة بين الحقائق العلمية في القرآن والسنة، وكشوفاتها الحديثة، والله ولي التوفيق.

الأمر الأول: الأصول العامة للتفسير المتفق عليه عند علماء المسلمين

ينبغي أن يعلم أن العلماء متفقون على منهج عام لفهم كتاب الله تعالى وتفسيره، فلا يجوز تجاهله وتخطيه بل لابد من اتباعه والالتزام به وهو:

١. أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فصل في موضع آخر.[55]

٢. أن يفسر القرآن بالسنة الصحيحة لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ **[النحل: ٤٤]** وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ **[النساء: ٥٩]** ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"،[56] يعني السنة.

٣. أن يفسر القرآن بأقوال الصحابة الصحيحة.

٤. أن يفسر القرآن بأقوال التابعين الصحيحة.[57]

٥. الأخذ بمطلق العربية؛ لأن القرآن أنزل بلسان عربي مبين، لهذا قال مالك ـ رحمه الله-: **"لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا"**.[58]

٦. التفسير بمقتضى الشرع دون الأخذ بمجـرد الـرأي.[59] يقـول ابـن تيميـة في مقدمـة التفسير: "وقد تبين بذلك أن من فسر القرآن والحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عـن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة وهو معلوم البطلان"[59] وهو رحمه الله يقصد بهذا من يخالف ما هـو ثابـت، أو يـتكلم بغـير علـم، بدليل قوله بعده: فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة عـلى تحـرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه".[60]

وينبغي أن نوضح في هذا المقام أن محكـمات القـرآن مـن عقيـدة أو عبـادات أو أحكـام وتشريعات فإنها مفهومة تماما بالتفصيل منذ عهد السلف الصالح، وأما المتشابهات في القـرآن الكريم فلا تعني إبهاما لكليات بدون معنى، كما يظنه بعض الناس، هذا الظن خطـأ، المتشـابه ليس مهملا ولا كلاما بدون معنى، بل لاحتوائه على معان كثيرة لا يمكن لنا أن نتبـين المعنـى المراد الذي يبدو مبهما، إنما يبدو مبهما، لأن الحقائق المحيطة التي تفيدها المتشابهات، لا يستطيع أن يستوعبها فكر بعض البشر، وأن المتشابه في الحقيقة: هو البيان الـذي يحتـوي عـلى مجمـوع وجوه البيان: من حقيقة ومجاز، وصريح وكناية، وتمثيل وتحقيق، وظاهر وخفي، فهـو المعلـوم والمجهول، ومعلوم أن الإبهام في الكلام في بعض المواقع يعد من أثمن وجوه البلاغـة، كـما أن كل شخص لا يكون أهلا لكل خطاب، وكذلك لا تستطيع القدرة البشريـة عـلى أن تتحمـل أفهام وتبليغ كلية العلم بالعلم الإلهي.

ونستطيع أن نشبه بعض المتشابهات القرآنية بأطياف القرص المرن أو بمصـباح بلـوري (كريستال) ضوؤه لا يتغير في الأصل، ولكن بسبب الزوايا الكثيرة التي توجد على زجاجات البلور، أو الانعكاسات على القرص، تتغير الألوان والأشعة وتزداد بحسب الزوايا واختلاف نظرة الناس، وهذه الإشعاعات في تجدد دائم لا ينتهي، (ما نفـدت كلـمات الله) بـما يفـتح الله

تعالى للناس من أبواب رحمته وعلمه، وما يوفقهم إليه من نظرات، وما يهديهم إليه من معارف وكشوفات، وذلك بحسب اجتهادهم وقدراتهم وحظهم من العلم الذي يوفقون إليه.

ولا يأخذ منه العلماء إلا ما يأخذ الناظر إلى نور الشمس، حيث يستضيء به ويهتدي بأنواره وضيائه، ثم لا يمكن أن يدرك نهايته أو يفهم كل حقائقه (لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد).

وأستطيع أن أقول أن الأحكام والتشابه وصف لكل آيات القرآن الكريم ، ولا يبقى متشابه متشابه إذا رد إلى الآيات المحكمات في كتاب الله .

فالتشابه في القرآن من باب التنوع في المدلول والتشابه في المعني لا من باب الإبهام والجهالة ، فالقرآن كله محكم البناء لا يلحقه باطل ، والتشابه والتماثل ما غمض ودق تفسيره احتاج المفسرون إلى تأويله أو حمله على المجاز ، ولابن الزبير كلام مفصل في هذه المسألة في كتابه (ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل .).

أما الذين يقولون إن القرآن كله محكم وليس فيه متشابه إلا على العوام والمتشابه في نظرهم قضية نسبية تتعلق بسعة أفق الإنسان في كل عصر والاكتشافات العلمية تنهي كثير من المتشابهات في القرآ،ن فهذا كلام ليس على إطلاقه يحتاج إلى تحرير ومدراسة .

فالإعجاز القرآني يتجلى من خلال صفته الربانية، ومنهجية القرآن المعرفية المطلقة، سواء كانت لغة أو بلاغة أو اجتماعية أو ثقافية أو علمية...

الأمر الثاني: قواعد التوفيق بين النص والاكتشافات العلمية الحديثة.

كثير من الباحثين من يتساهل في إطلاق الضوابط محل القواعد والعكس أيضا، وإذا لزم ذلك التفريق بالنسبة لعلماء الفقه والأصول لتعليق ذلك بالأحكام الشرعية الدقيقة، فإنه لا يلزم ذلك لغيرهم لمن يكتب في بحوث الفكر والثقافة والأدبيات المعاصرة، فالأمر فيه نوع من التساهل والتسامح. وأرجو من الله أن نوفق في العرض والبيان المناسب لهذه القواعد والضوابط، التي تحدد مسار الدراسات والبحوث في هذا الموضوع، وتمنع من الوقوع في تلك الأخطاء التي ينبغي أن ننزه القرآن والسنة عنها، وهذه القواعد هي كما يلي:

أولا:القرآن الكريم كتاب هداية:(61)

المتأمل في الدراسات التي اتجهت إلى القرآن الكريم وتشجيع بحوث الإعجاز وإثرائها، والدراسات التي اتجهت إلى منع هذه البحوث وتضييقها، يلحظ أن طرفيها وقع في محظور، فبعض الذين اتجهوا إلى الجواز وتوسعوا فيه من غير التقييد بهذه القواعد، التي تحد من الخيال والمبالغة والشطط، قد أفرطوا وأخرجوا القرآن عن كونه كتاب هداية، فأدت دراساتهم إلى نتائج عكسية جعلت كثيراً من الناس يحملون عليهم.(*) وكذلك الطرف الأخر الذين منعوا هذه البحوث ووضعوا السدود و الحدود أمام الباحثين فيها، قد ضيقوا واسعا. وهذا مما يجعلنا نؤكد على أهمية هذه القاعدة، لتبقى الدراسات الكونية المتعلقة بالآيات الكونية والاكتشافات العلمية الحديثة، في حدود هذا الهدف، ولا تؤثر على الغرض الأساسي للقرآن الكريم. فالمقصود الأسمى من القرآن الكريم هو الهداية والإرشاد، وقد سلك جميع الأساليب والمناهج العقلية والفطرية، لحمل الناس على هذا الهدف، ودعى إلى التأمل في الكون، ووجه النظر إلى كل ما يحيط بالإنسان من مسخرات من أجل هذا الغرض.

ومع هذا كله فإننا لا ننكر أن القرآن الكريم قد حوى أصول الإعجاز التشريعي والبياني والعلمي والتربوي والتأثيري والتاريخي...

ثانيا:استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية:

يستحيل التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية لأنها من مشكاة واحدة، وما يثيره بعض الناس، من توهم بوجود تناقض، فهو سوء فهم للحقيقة القرآنية والحقيقة العلمية معا، وينبغي أن نفهم في هذا المقام القواعد التالية:

أ- هناك نصوص من الوحي قطعية في دلالتها، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية في ثبوتها.

ب - في الوحي نصوص ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها.

جـ - لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي في دلالته وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقع التعارض في الظاهر، فلابد من البحث عن صحة الدليل النقلي، إن كان حديثاً، أما إن كان آية قرآنية، رجع إلى دلالاتها وما استقر عليه العلماء في تفسيرها. أما إذا كان التعارض ناتجاً عن خطأ في فهم البشر وعقولهم فإن الأمر يرجع إلى عدم إدراك السر والحكمة في نصوص الوحي، أو عدم تكشف حقائق الغيب، أو عدم استقرار النظريات العلمية، ولابد على كل حال من التزام قواعد الجمع والترجيح المعروفة في ذلك .[62]

ثالثا: ترك الإفراط والتفريط

ينبغي عدم الإسراف في التوفيق بين النص القرآني وبين الاكتشافات العلمية الحديثة إلى درجة التكلف والتَّفعُل والتأويل وتحميل النصوص ما لا تحتمل، فلا نبحث عن دقائق وخصائص الأمور الكونية أو الإنسانية أو الحيوانية أو النباتية، فنفصل القول في ذلك، ونجعل تفاسير القرآن وكأنها كتب لهذه العلوم البحتة المختصة، فلا نترك شاردة ولا واردة إلا

ونربطها بتفسير الآيات الكريمة؛ لأن ذلك يخرجنا عن حد الاعتدال في بذل الجهد في بيان مراد الله من التفسير.

رابعا: الحقيقة العلمية مناط الاستدلال:

فالقرآن يفسر بالحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل التغيير في صحة معناها وقوة مدلولها، ونبتعد عن ساحة الفرضيات والنظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، وينبغي عدم ذكر النظريات ولو من باب الاستئناس بها، مخافة أن يورث ذلك شعورا معينا لدى القراء خصوصا إذا ظهر بطلان هذه النظرية، فلن يسلم الفهم الخاص بالآية من التشويش والاهتزاز، ومن هنا كان خطأ بعض المفسرين الذين ذكروا الروايات الإسرائيلية وقرنوها بالآيات الدالة على ما هو قريب منها، حتى أصبح الناس ينظرون إليها أنها تفسير للآية، ثم ظهر بطلان كثير من هذه الروايات ومناقضتها للحقائق التاريخية والكونية والفلكية، مما هز ثقة الناس بالتفسير بالمأثور.

خامسا: علم الله تعالى مطلق، وعلم الإنسان محدود

إن كلام الله تعالى وعلمه مطلق شامل محيط بكل الحقائق الكونية، لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقض ولا نقص ولا تحريف، وعلم الإنسان محدود معرض للخطأ والزيادة، وما يعده اليوم حقيقة ينفيه في الغد، وأن نصوص الوحي قد نزلت بألفاظ جامعة، تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضعها التي تتابع في ظهورها جيلا بعد جيل، وأن القرآن الكريم لا يتجه بالخطاب إلى جيل ومكان معينين، بل إلى البشرية كافة في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، فينبغي عدم قصر دلالة آياته على حقيقة واحدة، فإن وجود حقيقة معينة في آية من آياته قد ظهرت لنا، لا يعني عدم وجود حقائق أخرى غيرها، ففضل الله واسع يؤتيه من يشاء، ويعطي كل عصر ويفتح فيه للناس من المعرفة ما يتناسب مع احتياجاتهم وارتقاء أفهامهم،

حسب حكمته وتقديره وتدبيره، قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧] والإشارات الكونية في القرآن الكريم قد صيغت صياغة مجملة معجزة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني، يتناسب مع ما توافر لهم من العلم بالكون ومكوناته، وتظل هذه المعاني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية باستمرار في تكامل لا يعرف التضاد.

فما توصل إليه البحث والتحقيق العلمي في فهم دلالة آية كريمة، فهو ليس منتهى الفهم لهم، فالقرآن الكريم يبقى مهيمنا على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، تصديقا لنبوءة الصادق المصدوق في وصفه لكلام الله جل جلاله بأنه "لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد".[63]

وينبغي في حديثنا عن هذه القواعد أن نركز على الثقة بالله واليقين على كلامه، ولا نكون مثل أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالحقائق المادية، الذين يريدون أن يجعلوا الإسلام دينا عقليا بحتا، غير مدركين طبيعته وفطرته وخطابه الإيماني وإعجازه التأثيري.

كما ينبغي التريث والتؤدة في إثبات كون القرآن دل على هذه المكتشفات الحديثة، لأنه ينبني على هذا، التقول على الله تعالى بأن هذه المكتشفات مراد الله تعالى في خطابه، ولأن الإدمان على مثل هذا المنهج ينشئ في النفوس غرام التبعية للغرب، فيجعل من موقفنا نحن المسلمين، موقف التلميذ الضعيف، الذي يشعر أنه لا شيء عنده يقدمه، فيبقى عالة على غيره، ينتظر منه كل جديد في العلوم، ثم يبحث عما يوافقه في كتابنا وسنتنا، ولا يخفى ما دخل علينا من هذا المنهج مما هو مخالف لفكرنا وثقافتنا وتصوراتنا.

ولهذا فإن بعض الدراسات في بحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، يحتاج أصحابها إلى الوعي والفهم والتطبيق والانضباط بهذه القواعد، كما أن هذه الدراسات

والبحوث تحتاج إلى قوة وهيئات ومؤسسات رسمية تحميها وتحييها، ولابد أن يواكب العلم ثقة بالذات تكون في الأمة، كي تدعم هذا العلم بكل استحقاقاته.

الأمر الثالث: الضوابط الشرعية لاستخراج وجه الإعجاز العلمي من النص:

من الضوابط الشرعية المهمة التي قررها العلماء في هذا المقام،[64] لاستخراج وجه الإعجاز العلمي من النص، والمواءمة بينه وبين كشوفاته الحديثة، والتي ينبغي تأكيدها وتعميمها والالتزام بها، وهي ما سنذكره فيما يلي:

أ. وجود الإشارة إلى الحقيقة العلمية في النص القرآني بشكل واضح لا مرية فيه.

ب. ثبوت النص وصحته إن كان حديثا لتواتر القرآن دون الحديث.

جـ. ثبوت الحقيقة العلمية واستقرارها استقرارا جازما ولا يكون التفسير حسب نظريات وهمية، وتوثيق ذلك توثيقا علميا متجاوزة مرحلة الفرض والنظرية إلى القانون العلمي..فإذا تم ذلك أمكنت دراسة القضية لاستخراج وجه الإعجاز، ويجب في أثناء تلك الدراسة مراعاة الضوابط التالية:

١- جمع النصوص القرآنية أو الحديثية المتعلقة بالموضوع ورد بعضها إلى بعض لتخرج بنتيجة صحيحة لا يعارضها شيء من تلك النصوص بل يؤيدها، فإن أي محاولة للتوفيق بين الاكتشافات العلمية الحديثة مرفوضة إذا خالفت ما دل عليه القرآن في موضوع آخر.

٢- جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالموضوع إن وجدت، وكذلك روايات الحديث بألفاظها المختلفة.

٣- معرفة ما يتعلق بالموضوع من سبب نزول أو نسخ، وهـل يوجـد شيء مـن ذلـك أو لا.[65]

٤- محاولة فهم النص الواقع تحت الدراسة على وفق فهـوم العـرب إبـان نـزول الـوحي وذلك لتغير دلالات الألفاظ حسب مرور الوقت، ولهذا يقتضي الأمر الإلمام بمسائل تعين على فهم النص والتمكن من تقديم معنى على آخر، وهي كالآتي:

أـ إن النص مقدم على الظاهر والظاهر مقدم على المؤول.[66]

ب ـ إن المنطوق مقدم على المفهوم وإن المفاهيم بعضها مقدم على الآخر كذلك.[67]

جـ ـ أن يخضع في تناوله للنص لقاعدة: العـام والخـاص والمطلـق والمقيـد والمجمـل والمبين وأن العموم مقدم على الخصوص والإطلاق مقدم على التقييـد، والإفـراد عـلى الاشـتراك، والتأصـيل عـلى الزيـادة، والترتيـب عـلى التقـديم والتـأخير، والتأسيس على التأكيد، والبقاء على النسـخ، والحقيقـة الشرـعية عـلى العرفيـة، والعرفية على اللغوية.[68]

دـ مراعاة السياق والسباق وعدم اجتزاء النص عما قبله وما بعده، بحيث لا يكـون التفسير نافرا.

هـ ـ مراعاة قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وـ عدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسول أو ماله حكم المرفوع.

زـ معرفة معاني الحروف وعدم تفسير حرف أو حمله على معنى لا يقتضـيه الوضـع العربي.

ح ـ مراعاة أوجه موافقة اللغة وعدم القول بتوجيه لا يسانده إعراب صحيح أو قرينة أخرى.

ط ـ أن المشترك اللفظي يمكن حمله على واحد من معانيه دون نفي الآخر أو القطع بأن هذا هو الصواب وحده ما لم تكن هناك قرينة راجحة.

٥- إظهار وجه الإعجاز: فإذا تم ذلك لم يبق على الباحث سوى أن يظهر الربط بين الحقيقة الشرعية والعلمية بأسلوب واضح مختصر.

٦- أن هناك أمورا من قبيل المتشابه لا مجال للقطع في فهمها والبحث فيها مفتوح لمن وفقه الله تعالى.

٧- عدم الاعتماد على الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة.[69]

٨- الاعتماد على المصادر المعتبرة في ذلك دون غيرها كأمهات التفسير والحديث وكتب غريب القرآن والسنة، ومع الإشارة إلى جهود الدراسات السابقة إن وجدت.

٩- عدم التعرض لمعجزات الأنبياء بالتوجيه وإلحاقها قسرا لأنظمة العلوم وقواعد الفنون.

١٠- عدم الخوض في الأمور الغيبية بأكثر مما أثبته القرآن وفسرته السنة، مثل قضايا الروح وقيام الساعة وحياه البرزخ، والملائكة والجن والسحر والعين والجنة والنار، والميزان والصراط، والذات الإلهية..، والتأكيد على أن حقائق الغيب الإسلامي لها من السنن الهادية والقوانين الخاصة لفهمها، ما هو مغاير لعالم الشهادة وما يتعلق به من السنن البانية.

١١- الابتعاد عن تسفيه آراء السلف من علماء التفسير والحديث ورميهم بالجهل، لأن القرآن والسنة خطاب للبشرية في كل عصر، والكل يفهم منها بقدر ما يفتح الله به عليه، وبحسب

ما يبذله من جهد وما هو متوفر لديه من وسائل، ولن يحيط بفهم الوحي أهل عصر إلى قيام الساعة، فلا مجال للتسفيه والتجهيل وإنما هي الاستفادة والتكميل والدعاء لمن تقدم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

١٢- ينبغي أن تحصر الدراسة فيما تمكن القدرة عليه وعدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة، فالأفراد يمكن أن يقصروا بحوثهم فيما يتعلق بالاكتشافات فيما هو خاضع لتجاربهم المخبرية ليصلوا من خلال ذلك إلى الحق، وللجامعات والمراكز والدول مجالات أكثر وأكبر.

١٣- ينبغي أن يعلم الباحث في هذا المجال أن كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم صدق وحق ولا يمكن بحال أن يخالف حقيقة علمية، لأن منزل القرآن هو الخالق العالم بأسرار الكائنات ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.[70] ومعرفة ذلك تقتضي منا التريث وعدم تحميل النص ما لا يحتمل من أجل أن يوافق ما نظنه حقيقة، فإذا لم يتيسر ذلك بشكل واضح فعلينا أن نتوقف دون نفي أو إثبات ونبحث عن موضوع آخر والزمن كفيل بانكشاف الحق بعد ذلك.

١٤- على الباحث أن يتحرى الصدق والصواب وأن يخلص نيته لله في تبيين الحق للناس من أجل هدايتهم، وأن يعلم خطورة ما يتناوله ويعبر عنه فهو عندما يقول: هذا المعنى هو الذي يشير إليه قوله تعالى، فهو يفسر كلام رب العالمين، لذا يجب عليه أن يتذكر دائما قول ا النبي صلى الله عليه وسلم : "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار".[71]

١٥- ينبغي أن يتصف الباحث كذلك بالصبر مع توفر الكفاءة العلمية المكتسبة حتى يميـز الحـق من الباطل ويقبله ويلتزم بالموضوعية، ومعناها هنا: حصر المعلومات ودراستها من غير تحيز لفكرة أو رأي سابق، مع التقيد بالمنهج العلمي في التوثيق والاقتباس والإحالات.(72)

وليس المراد من هذه الضوابط الحجر على الباحثين أو منعهم من التدبر في كتاب الله، وإنـما هـو محاولة لضبط مسيرة البحث بالضوابط الشرعية، وإرشاد الباحثين المسلمين إلى الطريق الصحيح لفهم كتاب الله تعالى في هذا الجانب المهم (الإعجاز العلمي، والتفسـير العلمـي) ويمكـن للباحـث غـير المتخصص أن يراجع أهل الاختصاص فيما يخفى عليه، أو يشترك مع متخصص من أهل العلم، مـن أجل الوصول إلى الحق والتفسير الصحيح، الذي لا شطط فيه ولا شطح، بعيدا عن تقليـد الآخـرين وترديد أقوالهم.(73)

الخاتمة

وبعد: فنحمدك اللهم أن أنزلت القرآن العظيم، على خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعلته أبلغ دلائل نبوته وأجل آيات صدقه، وعلى قدر الكمال الذي ختم الله به النبوات، كان الكمال الذي ختم به الرسالات، فكان القرآن معجزة الله الخالدة وحجته البالغة وسراجه المنير، وكان الشاهد والمشهود على عالمية الإسلام وبقاء رسالته وحفظ دينه ودعوته وصلاحيته لكل زمان ومكان.

وهذه أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة:

ـ إن التوفيق بين النص القرآني وبين الاكتشافات العلمية الحديثة لا يجوز أن تصدر عن خلفية تعتمد هذه الاكتشافات أصلا وتجعل القرآن تابعا، ويجب أن تظل بحوث الإعجاز والدراسات المتعلقة بالآيات الكونية..في خدمة الهدف الأساسي للقرآن الكريم، وغرض الهداية والإرشاد، ولا تتنافى مع طبيعة القرآن الكريم.

ـ التفسير العلمي: هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ثبت وترجحت صحته من حقائق ونظريات العلوم الكونية. وهو أعم من الإعجاز العلمي.

ـ الإعجاز العلمي: فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيرا، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. بحيث يظهر بها التأويل ويستقر بها التفسير، وتتضح بها الحكمة وتنكشف بها الحقيقة التي يؤول إليها معنى النصوص، وتتجلى بها الشواهد وتفصح عنها الظواهر الكونية، ويتطابق بها كتاب الله المنظور وكتابه المسطور، وتتواءم بها السنن الهادية والسنن البائنة، ويتوافق بها العقل والنقل، وصحيح المنقول مع صحيح المعقول.

ـ الإعجاز بشكل عام: اسم للقصور عن فعل الشيء أو مجاراته أو عدم القدرة على الإتيان بمثله.

والإعجاز في القرآن الكريم: قصور البشر وإذعانهم وتسليمهم بكل ما جاء في القرآن الكريم: وعدم قدرتهم على مجاراته أو الإتيان بمثله، بأي وجه من وجوه إعجازه المتنوعة، وفي أي زمن من الأزمان وتقييد الإعجاز بالتحدي أمر طارئ على الفكر الإسلامي، وتضييق لأمر فيه متسع.

ـ إن التفسير العلمي والإعجاز العلمي والعددي في جملته لا يخرج عن كونه تفسيرا بالرأي، فهو جائز على الأشهر ويجب أن نتجاوز فيه منطقة الشك والخلاف، لما جرى عليه العمل عند أكثر الكثير من كتابات العقلاء وسيرهم وأبحاثهم، التي تمت فيها مراعاة الأصول والقواعد المعتبرة والضوابط الشرعية المقررة.

ـ إن استخراج وجه الإعجاز العلمي من النص، والتوفيق بين حقائق القرآن وآياته الكونية، وبين كشوفاتها الحديثة، له طرقه وصوره ومنظوماته الخاصة، ولا يجوز أن تصدر عن غير المتخصصين ولا كل من هب ودب من الذين يدخلون في مجالات لا يحسنونها، لأن ذلك يؤدي إلى التكلف والتَّفعُل والاعتساف والتأويل للنصوص على غير مقاصدها الإيمانية والشرعية، واهتزاز الثقة بالقرآن الكريم، وكتاب الله أعظم وأجل من أن يكون حقلا للعبث والتجريب.

ـ إن القول بأن التحدي بالنظم والبيان قد انتهى والإعجاز العلمي باق، قول باطل غير صحيح، فلا يزال التحدي بالنظم والبيان قائماً، وصور الإعجاز ومظاهره المتنوعة كلها في مستوى واحد من القوة، ولا يقوى بعضها على بعض، ولكن قد يكون بعضها أظهر من بعض، فالإعجاز العلمي أظهر في الدلالة في هذا العصر، ولا يجوز أن يكون هناك خصام بين من يقول بالإعجاز البياني والإعجاز العلمي، فالقرآن كله إعجاز، وإعجازه لا ينتهي، وهو

معجز في كل أموره وتفاصيله وجزئياته، وهو كالبدر من أي جهة نظرت إليه يهدي إليك أنوارا جديدة، وأطياف نوره في تجدد دائم كتجدد الفجر والنهار.

ـ أن الإعجاز البياني أساس الإعجاز العلمي ولبه، وهو أصل عام لأوجه الإعجاز كلها، وأن ترجيحنا لاستعمال مصطلح الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لا يعني ذلك إلغاء للإعجاز البياني، ولكنه إيمان منا بأن هذا الترجيح له أدلته العلمية ومبرراته الشرعية والواقعية والمنطقية، ولما يحقق من أهداف وما تقتضيه المستجدات، وما له من أثر في الحياة العلمية والدراسات المتخصصة المعاصرة، ولأنه أكثر تألقا في الاستعمال والدراسات القرآنية الجديدة، وتشجيعا للبحث العلمي، ليرفد مسيرة العلم بما تستحق من دعم وجهد، ولما في العلوم المعاصرة من فوائد كثيرة يمكن الاستفادة منها في الدعوة إلى الإسلام، وتثبيت الإيمان، ليستمر البناء والعطاء القرآني، على الرغم من وجود قصور عند كثير من الباحثين في هذا السبيل.

ـ إن الضوابط الشرعية والقواعد العلمية، التي تقدم ذكرها، هي مرآة تعكس لنا مقدار ما يجب أن يتحلى به الباحثون في ميدان الإعجاز العلمي، في استطلاعهم للاكتشافات العلمية الحديثة، واستنباطهم واستبصارهم لدلالاتها في القرآن والسنة، ومعرفة أوجه الإعجاز المبثوثة في مواقعها، كما تعكس لنا مقدار ما يجب على الدارسين من أخذ الحيطة في تقعيد مسائل الإعجاز، وتقرير نتائج البحث العلمي فيها.

أما التوصيات فنذكر أهمها فيما يلي:

ـ نوصي بالاستفادة من مباحث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في مجال التعريف بالإسلام والدعوة والحوار، وفي أسلمة المعرفة وتأصيلها، وربط العلم وتقنياته المعاصرة ومكتشفاته الحديثة بقضايا الإيمان، وتحقيق التوافق بين علوم الوسائل والأدوات وعلوم المقاصد والغايات.

– نوصي لتحقيق الضوابط الشرعية للاكتشافات العلمية الحديثة ولدلالاتها في القرآن

والسنة، ـ الانطلاق بها من المجامع والهيئات العلمية والرؤية الجماعية التي يـؤمن منهـا الخطـأ والخلل وتطمئن فيها الدراسات، اطمئنانا يوحي براحة النفس إلى تلك النتائج واستقرارها في ميادين العلم الحديث.

ـ نوصي بتدريس الإعجاز العلمـي وقضـايا العلـم والإيـمان في الجامعـات، وأن تـولي الجامعات الإسلامية والعربية مباحث الإعجاز العلمي اهتماما خاصا في المقـررات الدراسـية، باعتبارها من أمضى أسلحة الدعوة وأقواها في إقامة الحجة والبيـان وغـرس الهدايـة وتعميـق الوعي والفهم وتثبيت الإيمان، إذ تعتبر قضايا العلم والإيمان في مباحثها الجديدة، مـن أفضـل الموضوعات وأكثرها حيوية وجاذبية لطلبة العلم.

ـ نوصي بإنشاء مجلة لإعجـاز القـرآن والسـنة يصـبها سلسـلة مـن الكتيبـات الدوريـة للكتاب المتخصصين في مختلف الحقول المعرفية، تعنى بالجديد المفيد من موضوعات الإعجاز، وترجمتها إلى مختلف اللغات، لإبراز الحقائق التـي تؤكـد السـبق العلمـي والمعـرفي في القـرآن والسنة.

ـ نوصي بالانتقـال بالإعجـاز العلمـي مـن النظريـة إلى التطبيـق، وتوظيفـه في مختلـف التطبيقات العلمية والعملية، وتشجيع بحوثه الأصيلة وتوجيهها الوجوه الخيرة، وذلـك مـن خلال عمل موسوعي، وهيئات ومراكز رسمية، تراعي وتتـابع ذلـك كلـه، ليظـل العلـم في الدائرة المأمونة، ويبقى في خدمة الإيمان ونشر الهدايـة وعـمارة الأرض، وتحقيـق الاسـتخلاف المطلوب والمقاصد الربانية والغايات النبيلة في هذه الحياة، ليـنعم الجميـع بـالأمن والإسـلام، وليزداد الذين آمنوا إيمانا.

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق

والحمد لله أولا وآخرا

الهوامش والمراجع بحسب ورودها في المتن

(١٢) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣.

(13) د. عبد الله المصلح، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص١٢، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ.

(14) د. عتر، حسن ضياء الدين، المعجزة الخالدة، ص١٠٧، ط٣، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٩٩٤.

(15) د. زغلول النجار، ص١٨، قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، بحث مقدم لمؤتمر إعجاز القرآن، كلية الشريعة جامعة الزرقاء ٢٠٠٥-٢٠٠٦.

(16) ابن منظور، لسان العرب، ٥/ ٥٥، وانظر القاموس المحيط مادة فسر.

(17)السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ٤/ ١٦٩، البرهان الزركشي ١/ ١٣.

(18) د. عبد المصلح، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ٣٣.

(19) عبد المجيد الزنداني، تأصيل الإعجازالعلمي في القرآن والسنة، ص ٢٥، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام أباد، باكستان ١٩٨٧.

(20) أحمد شاكر، مقدمة تفسير الطبري ١/ ٧٢، د. فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ٢/ ٦٠١، الرياض، ط١، ١٤٠٧هـ.

(21) د. أبو حجر، أحمد عمر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان ص١٣٣، وقد نقل أمثلة على التفسير المردود ثم أردفها بأمثلة من التفسير المقبول.

(22) د. عبد الله المصلح، الإعجاز العلمي ص٣٨ ـ ٣٩.

(23) تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص١٤.

(24) الشريف الجرجاني، التعريفات، مادة علم.

(25) الفاروقي، إسماعيل، أسلمة المعرفة ص ١٦، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٨٤.

(26) إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، ص٢٩ ـ ٣٤.

(*) (ص٩) الصرفة في اصطلاح علماء الكلام تعني أن الله قد أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم عن الإتيان بكتاب مثل القرآن العزيز بالصرفة، أي أن الله صرف العرب ـ كل العرب ـ عن معارضة القرآن، وسلب

عقولهم، وقدراتهم فلم يستطيعوا أن يضعوا كتابا كالقرآن، مع أن قدراتهم اللغوية على مستوى التحدي، وهو مذهب النظام المعتزلي، إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ، ويبدو الفساد ماثلا في هذا الرأي من وجوه:

أن إعجاز القرآن مؤقت، يزول بزوال الفترة التي حصل فيها التحدي. مع أن نصوص القرآن تدل على أن الإعجاز دائم مستمر إلى يوم القيامة، فالإعجاز متجدد في سائر الأزمان والأوقات، ثم إن هذا الرأي يقتضي أن الإعجاز هو الصرفة، وليس القرآن، وهذا خلاف الواقع. أي: يكون سلب القدرات هو الإعجاز، وليس النص القرآني.

(27) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ٢١ ـ ٢٣، بتصرف واختصار، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، طبعة مصر.

(28) المصدر السابق، ٢٣ – ٢٦.

(29) تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ٢٨، ٣٢.

(*) (ص١٠) راجع تفصيل ذلك في اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د. فهد الرومي، ٢/ ٦٤–٦٤٠، وانظر: الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، تقديم محمود شاكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة ط٢، ١٩٦١.

(30) رواه الترمذي في سننه رقم ٢٩٥، وأحمد في مسنده (١/ ٢٣٣) وفي سندهما ضعف.

(31) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ٤١).

(32) مثل هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي، ولجنة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

(33) مناع القطان، التشريع والفقه في الإسلام تاريخا ومنهجا ص١٠٤ – ١١٠، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢.

(34) رواه البخاري في صحيحه، رقم ١٤٣، وزاد أحمد في مسنده برقم ٢٢٧٤، وعلمه التأويل وأصل هذه الزيادة في البخاري برقم ٧٥ بلفظ (اللهم علمه الكتاب).

(35) د. شحادته، عبد الله، تفسير الآيات الكونية، ص٢٢، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٢، وراجع د. جمال الدين الفندي (القرآن والعلم).

(*) (ص١٢) لقد كان هذا الباب مدخلا لإيمان كثير من مفكري العالم، أمثال الطبيب الفرنسي موريس بوكاي (أنظر كتابه دراسات في الكتب المقدسة)، والعالم الكندي جاري ميلر، أستاذ الرياضيات بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن والذي كان قسيسا يدعو للنصرانية، وروبرت كونتين، أحد مستشاري الرئيس الأمريكي "نيكسون" والذي يحمل الدكتوراه في دراسة الحضارات، وعمل في الخارجية الأمريكية والبيت الأبيض ثلاثين سنة، انظر: كتاب (الذين هدى الله، د. زغلول النجار، ص٤٨، ٥٠، دار الراية. والمفكر الإنجليزي كويليام، الذي يصف القرآن الكريم من الوجه العلمي فيرى أنه أبلغ كتاب في الشرق، انظر: القرآن الكريم من منظور غربي، د. عماد الدين خليل ص٢٥ وما بعدها، دار الفرقان، عمان ١٩٩٦. وانظر كتاب "لماذا أسلمنا" مجموعة مقالات لنخبة من رجال الفكر في مختلف الأقطار تتحدث عن سبب اعتناقهم الإسلام، نشر الرئاسة العامة، الرياض ١٤٠٤هـ.

(36) رضا، محمد رشيد "تفسير القرآن الحكيم" المشهور بـ "تفسير المنار" ١/ ٢١٠-٢١٢، دار المنار، القاهرة ١٩٥٣.

(37) ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ١/ ٤٢-٤٥، الدار التونسية، تونس ١٩٧١.

(38) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل ١/ ١١ وما بعدها، جامعة الإمام، الرياض ط١، ١٩٨٠.

(*) (ص١٣) نقصد بالتفكير الديني في هذا المقام، التفكير الإسلامي، بالمعنى الأخص للدين، لأن هناك تفكيراً دينياً بالمعنى العام لمفهوم الدين يتعارض مع التفكير العلمي والتجربة والعقل والمنطق السليم، لأنه ناتج عن ديانات محرفة وما أصابها من تبديل وتغيير، مما أدى إلى اختلاط بين غيب الدين وغيب الأساطير، وما نتج عن ذلك من منازعات بين العقل والنقل وبين العلم والإيمان، وما كان لذلك من آثار سلبية في الصراع بين الكنيسة والعلم أو العلم والدين والفلسفة، مما هو معروف في العصور الوسطى في أوروبا. ولهذا فإن هناك فرقاً كبيراً بين الغيب الديني الصحيح، وغيب الأساطير، مع كون الاثنين غيباً:

أ. غيب الدين الصحيح: خبر رباني (الوحي) ثبت بالقرآن والسنة الصحيحة، فهو بمثابة حقائق ومسلمات لا تتعارض مع العلم والبحث ويتميز باليقين والصدق والاتفاق والثقة، أما غيب الأساطير: خبر إنساني، فهو معرفة منفصلة عن الإيمان وعن العلم، ويشوبها الظن والكذب والهوى الجد؟!

ب. التفكير الإسلامي الأصيل أساسه الوحي الصادق، وحقائقه مستمدة من العلم والإيمان معا، فهو أكثر شمولية ومنطقية وأصاله من الفكر الأسطوري القائم على الرواية الكاذبة والضلال البعيد وطرق المعرفة التي لم يتفق عليها.

جـ. الغيب الديني الصحيح قائم على السند الصحيح، بينما غيب الأساطير لا سند له.

د. العلم بتقدمه يكشف عن حقائق غيب الدين الصحيح ويتوافق معها، بينما يكشف العلم عن خرافات غيب الأساطير ويتناقض مع رواياتها.

هـ. غيب الأساطير قائم على الخيال والمبالغة والأوهام والظنون والخرافة، ويتعارض مع حقائق العلم ويقينيات العقل وحقائق الدين والمنطق السليم.

(*) (ص١٤) راجع أمثلة أخرى لهذه الاتجاهات التفسيرية في كتاب التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي ٢/ ٢٥٣ ـ ٢٦٣ دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦، وتعريف الدارسين بمناهج المفسرين، د. صلاح الخالدي.

(**) (ص١٤) انظر: د. صلاح الخالدي، البيان في علوم القرآن ٣٦٨-٣٧٣، والدكتور عدنان زرزور، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ٢٤٩-٢٥١، دار القلم، دمشق ١٩٩٥.

(39) راجع في هذا المقام بحثاً متميزاً، فيه عمق ومتابعة للدكتور أحمد شكري بعنوان "وقفات مع فكرة الإعجاز العددي والمؤلفات فيه" شارك به في مؤتمر إعجاز القرآن الكريم لكلية الشريعة بجامعة الزرقاء الأهلية ٢٠٠٥.

(40) د. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ص ٢٢١، ١٣٤، ط١، دار القلم، دمشق ٢٠٠٢.

(*) (ص١٦) اختلف العلماء في التحدي هل يختص بعصر الرسالة، أو يمتد على مر الدهور، على قولين:

القول الأول: العرب في عصر الرسالة هم المخصوصون بالتحدي دون غيرهم، وهو قول ورد في كلام الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، ص٨، ورجحته الدكتورة بنت الشاطئ في كتابها الإعجاز البياني للقرآن ص٧٥، بحجة أنهم أصحاب اللسان العربي الذين يدركون أسرار بيانه، وأنهم موضع التحدي، وقد وجه الدكتور قحطان الدوري كلام الباقلاني مخالفا في ذلك بنت الشاطئ.

القول الثاني: التحدي قائم في كل زمان، وهو قول سيد قطب والسيد أحمد صقر والدكتور محمد عبد الله دراز، ومغنيه، وهو ما رجحه الدكتور قحطان عبد الرحمن الدوري، انظر هذه الأقوال في كتاب: التحدي في آيات الإعجاز للدكتور قحطان الدوري، ص ٤٧ وما بعدها ط١، دار البشير، ومؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م.

(41) د. أبو عودة، عودة، شواهد في الإعجاز القرآني، دراسة لغوية ودلالية، ص٣٣ وما بعدها، دار آفاق، عمان ١٩٩٩.

(42) د. الخالدي صلاح: إعجاز القرآن ودلائل مصدره الرباني، ص٥.

(43) رواه مسلم.

(44) فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، جـ١/ ١١٢ – ١١٣. دار الفرقان ط١، عمان ١٩٩٧.

(45) نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن من البعثة حتى عصرنا الحاضر، خلاصة أقوال العلماء، ص٤٦٩ – ٤٨٠، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت ١٩٨٠، وراجع كتاب إعجاز القرآن في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب ١/ ١٥٥.

(**) (ص١٩) حتى أن معجزات الأنبياء المحسوسة التي هي من خوارق العادات، ليس فيها تحدٍّ في لسان المقال، لكنها عين التحدي في لسان الحال، (ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من الخشب) وقد جاء الإشكال والالتباس في الخلاف بين أهل العلم، من إسقاط مفاهيم مصطلح المعجزة الذي قننه العلماء المتأخرون، على التصورات الإسلامية وتقيدهم به.

(46) رواه البخاري معلقا (برقم ١٢٧/ بترقيم فؤاد عبد الباقي، وقد اشتهر بين الناس (حدثوا الناس على قدر عقولهم..)

(47) الزمخشري، جار الله محمود، الكشاف، جـ٣، ص١٥٤، دار المعرفة بيروت.

(**) انظر إلى هذه الكتابات العقيمة التي كتبها أعداء القرآن أمثال القس الأمريكي اليهودي (أنيس شروش) الذي ألف كتابا أسماه (الفرقان الحق)، وأمثال القسيس المصري عبد الله الغاوي، الذي ألف كتابا بعنوان (هل القرآن معصوم؟!) الذي يدعي فيه عدم عصمة القرآن، وأنه بحث في القرآن بموضوعية وحياد فكري فوجد فيه ٢٥٠ خطأ ما بين خطأ عقدي ولغوي وفكري وسياسي واجتماعي وعلمي وغير ذلك، وإني لأرجو الله أن يوفق علماء التفسير في الرد السريع على هؤلاء الغربان أعداء القرآن، الذين ينعقون بما لا يسمعون.

(48) التفتازاني، التلويح على التوضيح ج١/ ٢٠، مطابع صبيح، القاهرة.

(49) الندوي، علي، القواعد الفقهية، ص٤٣، ط دار القلم، دمشق ١٤٠٦هـ.

(50) السدلان، صالح بن غانم، ص١٤٨، القواعد الفقهية الكبرى، وما تفرع منها، ص١٤، دار بلنسية، الرياض، ١٩٩٩.

(*) (ص٢٠) عرفت القاعدة الفقهية بأنها: "حكم كلي ينطبق على جزئياته ليتعرف على أحكامه منه"، وعرفها الزرقا في المدخل الفقهي العام، ج٢، ص٩٤٦ بأنها: "أصول فقهية كلية من نصوص موجزة دستورية تتضمن أحكاما تشريعية عامة في الحوادث التي تدخل تحت موضوعها".

ويفرق بين القاعدة والضابط عند الفقهاء، بأن القاعدة تحيط بالفروع والمسائل في أبواب فقهية كقاعدة (الأمور بمقاصدها) فإنها تطبق على أبواب العبادات والجنايات والعقود وغيرها من أبواب الفقه.

بمعنى آخر: تعابير فقهية مركزة تعبر عن مفاهيم مقررة في الفقه الإسلامي تبنتها المذاهب الاجتهادية في تفريع الأحكام وتنزيل الحوادث عليها وتخريج الحلول الشرعية للوقائع وتشمل مجالات الأحكام كلها.

أما الضابط: فإنه يجمع الفروع والمسائل في باب واحد مثاله: أيما أهاب دبغ فقد طهر، فهذا الحديث يمثل ضابطا فقهيا في موضوعه ويغطي بابا مخصوصا.

والقواعد أعم وأشمل من الضوابط من حيث جمع الفروع وشمول المعاني. وقد فرق العلماء بين القاعدة الفقهية والنظرية الفقهية وبين القاعدة التشريعية وبين القاعدة الأصولية، لكن المقام لا يتسع لتفصيل ذلك.

(51) المصلح، د. عبد الله بن عبد العزيز، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص٢٦، هيئة الإعجاز، مكة المكرمة ط١، ١٤١٧هـ.

(52) رواه الترمذي (٢٦٨٧) بترقيم أحمد شاكر، وابن ماجه ٤١٦٩/ ترقيم فؤاد عبد الباقي.

(53) دويدري، د. رجاء وحيد، البحث العلمي ص١٠٩، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠.

(54) المرجع السابق، ص١١٨.

(55) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٤/ ١٧٤، وانظر نموذج لهذا المنهج من التفسير في: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

(56) المسند، ٤/ ١٣١ وهو حديث ضعيف.

(57) انظر في ذلك محاسن التأويل، للقاسمي ١/ ٢١-٢٢.

(58) رواه البيهقي في شعب الإيمان، كما في الإتقان للسيوطي ٤/ ١٨٣، وانظر الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٩١.

(59) الإتقان ٤/ ١٨٢، محاسن التأويل ١/ ٩٨.

(59) مجموع الفتاوي لابن تيمية ١٣/ ٢٤٣.

(60) مجموع الفتاوي، ١٣/ ٢٧٤.

(61) د. مسلم، مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن ص١٧١-١٧٦، دار المسلم، الرياض ١٩٩٦، وانظر كتابه الآخر: مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم دمشق ١٩٩٠.

(*) (ص٢٣) انظر: إتقان البرهان للدكتور فضل عباس، ص١٢٦ فقد أورد نماذج من التفسير للذين خرجوا به عن الضوابط الشرعية، وقد تجاوز البعض في المبالغة في مثل هذا التفسير، ففسر "والعاديات ضبحا فالموريات قدحا" بالسيارات، وما سمعناه من تفسير لبعض الآيات من سورة التوبة برقم السورة (٩) ورقم الآية (١١)، التي ادعى بعضهم أنها تتوافق من أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي وقعت في أمريكا.

(62) الزنداني، عبد المجيد، تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ٢٦-٢٧.

(63) سبق تخريجه.

(64) د. المصلح، عبد الله، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص ٢٨،٣٢.

(65) راجع في هذا المجال: كتاب أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري، وجامع النقول في أسباب النزول، لابن خليفة عليوي، وانظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مبحث نسخ السنة بالقرآن والقرآن بالسنة، ص٣٧٥، ٣٩٤، المكتب الإسلامي، دمشق ط٣، ١٩٨٢.

(66) زيدان، عبد الكريم، الوجيز في أصول الفقه، دلالة النص ص٣٦١ مؤسسة الرسالة ط٧، بيروت ١٩٩٧.

(67) راجع: الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ٣/ ٩٥-٩٥، وراجع: القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

(68) انظر: الوجيز في أصول الفقه، مبحث المطلق والمقيد ص٢٨٤، والخاص والعام، ص٢٧٩-٣٠٥، والتعارض والترجيح ص٣٩٣.

(69) راجع في هذا الباب: كتاب الإسرائيليات والموضوعات للشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله.

(70) سورة الملك، الآية ١٤.

(71) رواه الترمذي، وقال هذا حديث حسن ٥/ ١٤٩، رقم (٢٩٥٠).

(72) أبو سليمان، د. عبد الوهاب إبراهيم، جدة ١٩٩٣، كتابه البحث العلمي ومصادر الدراسات الفقهية. ج١، ص١٩-٢٠، دار الشروق ط١.

(73) يحسن في هذا المقام، لتمام الرؤية الشرعية للاكتشافات العلمية ودلالاتها في القرآن والسنة، الاطلاع على كتاب: المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة (ضوابط ومحاذير في الفهم والتفسير) للدكتور يوسف القرضاوي، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٩٩٦، وكتاب: كيف نتعامل مع السنة النبوية (معالم وضوابط) للدكتور يوسف القرضاوي، طبع مكتبة المؤيد، الرياض ١٩٩٠، وموسوعة الإعجاز في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، مكتبة ابن **حجر، دمشق ٢٠٠٣.**

المبحث الثاني
إعجاز القرآن والسنة في الحديث عن علم الأجنة ونشأة الإنسان

لقد تحدث القرآن الكريم والسنة المطهرة عن مراحل نشأة الإنسان وتخليقه الجنيني في سبق علمي لم يعهد من قبل ، ومن هذه المراحل : مرحلة الطين ، ومرحلة النطفة ، ومرحلة العلقة ، مرحلة المضغة ، مرحلة العظام واللحم ، مرحلة الخلق الآخر ، مرحلة الطفولة ، مرحلة الرشد ، مرحلة الشيخوخة.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المراحل في مصطلحات علمية سهلة وكلمات دقيقة واضحة ، ومن هذه الكلمات :

أجنة (جنين) ، أطوار ، الخلق ، التقدير ، الجعل ، الحرث ، الزواج ، النطفة ، المضغة ، العلقة ، الأمشاج ، مخلقة وغير مخلقة ، الظلمات الثلاث ، المخاض الحيض ، الماء الدافق ، العظام ، الكساء باللحم ، الحمل ، الفصال ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، الضعف ، القوة ، الطفل ، الأشد ، الشيبة ، القرار المكين ، ثم السبيل يسره ، الأجل المسمى ، الموت ، الحياة ..

وسوف نتحدث عن هذه المراحل كما جاء وصفها ودلالاتها في القرآن والسنة مع ذكر بعض الشواهد العلمية الحديثة عليها ، وذلك بالقدر المناسب الذي يقتضيه المقام في هذا البحث .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤] .

تفيد الآية الكريمة أن الإنسان يخلق في أطوار ويؤكد هذا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٤] ، ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ﴾ [الزمر : ٦] .

أولاً : مراحل التراب في تخليق الإنسان كما وصفها القرآن الكريم :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ [غافر: ٦٧] .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦] .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ – ٢٩] .

قال رسول الله ﷺ :

((كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان)) [١] .

وقال رسول الله ﷺ : ((الناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب)) [٢] .

الصلصال : هو الطين اليابس الذي يصلصل عند نقره ، المتخذ من الطين الرطب الآسن.

من حمأ مسنون: أي من طين أسود متغير .

وخلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والنفخ فيه من روح الله تعالى ، لا ندري شيئاً عن كيفيته ، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال [٣] .

وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الآخرى في هذه القضية وبخاصة قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] ، أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ، ومن عناصره الرئيسية التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين . وإلى هنا وتنتهي دلالة النصوص ، فكل زيادة تحمل عليها ضربٌ من التحمل ليس القرآن في حاجة إليه . وللبحث العلمي أن يمضي في طريقه بوسائله الميسرة

---

١ . رواه أبو بكر البزار في مسنده من حديث حذيفة .

٢ . رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة .

٣ . قال المفسرون : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) السلام جواب قسم أي والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلاصة استلت من طين ، قال ابن عباس : هو آدم لأنه أنسلَّ من الطين . والسلالة : خلاصة مستقة من السِّل وهو استخراج الشيء من الشيء تقول : سللت الشعرة من العجين .

له ، فيصل إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات ، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلاً مضمونه ، ويبدل منها ما لا يثبت على البحث والتمحيص غير متعارض في أية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التي تضمنها القرآن ، وهي ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء في تركيبها على وجه اليقين .

وجاء في (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) في تفسير قوله تعالى للآية الكريمة : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥] : أن معنى خلق الله سبحانه وتعالى للناس من تراب، أنه خلق أباهم آدم منها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران: ٥٩] ، ولما خلق أباهم من تراب وكانوا – تبعاً له في الخلق – صدق عليهم أنهم خلقوا من تراب . وما يزعمه بعض أهل العلم من أن معنى خلقهم من تراب أن النطفة إذا وقعت في الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق الله النسمة من النطفة والتراب معاً فهو خلاف المحقق . لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة ، فهي غير مقارنة لها بدليل الترتيب بينهما ب (ثُمَّ) في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الحج: ٥] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [غافر: ٦٧] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٣] وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة: ٧ – ٨] ، وكذلك ما يزعمه بعض المفسرين من أن معنى خلقهم من تراب أن المراد أنه خلقهم من النطف ، والنطف من الأغذية ، والأغذية راجعة إلى تراب غير صحيح .

أما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولاً ، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيراً ؟ فهذا هو السر الذي يعجز عن تعليله البشر أجمعون . ولا يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافياً ، ولا يزعم أحد أنه اهتدى إليه . أما سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة على الخلائق الحيوانية جميعها ، تتفوق تفوقاً حاسماً منذ بدء ظهور الإنسان ، فهذا سر لا تزال النظريات تخبط حوله .

والقرآن الكريم يفسر لنا ذلك التفرد :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : ٢٩] .

إنها روح الله ، تنقل هذا التكوين العضوي الوضيع إلى ذلك الأفق الإنساني الكريم ، منذ بدء التكوين ، وتجعله ذلك الخلق المتفرد الذي تُوكل إليه الخلافة في الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين .

كيف ؟ ومتى كان في نطاق هذا المخلوق الإنساني أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم ؟

هنا نصل إلى الأرض الصلبة التي نستوي عليها مطمئنين .

لقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال ، ثم من النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء ، ومنحته خصائصه الإنسانية ، التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية ، فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء ، بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه .

هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلى ، وتجعله أهلاً للاتصال بالله ، والتلقي عنه ، ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس ، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول ، والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسري به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير المحدودة في بعض الأحيان .

ذلك كله مع ثقلة الطين في طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته : من طعام وشراب ، وشهوات ونزوات . ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات ، ولا بد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورها كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ، ومن النفخة العلوية التي جعلت منه هذا التكوين الفريد ، إنه لا انفصال بين هذين الأفقين في تكوينه ، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر في حالة واحدة من حالاته . إنه لا يكون طيناً خالصاً في لحظة ، ولا يكون روحاً خالصاً في لحظة ، ولا يتصرف تصرفاً واحداً بحكم تركيبه الذي لا يقع فيه الانفصال .

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذي يُطلب إليه أن يبلغه ، وهو الكمال البشري المقدر له . فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً والذي يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية فهو كالذي يحاول أن يعطل طاقاته الروحية ، كلاهما يخرج على سواء فطرته ، ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له ، وكلاهما يدمر نفسه بتدمير ذلك المركب ، وهو محاسب أمام الله – عز وجل – على هذا التدمير .

من أجل ذلك أنكر الرسول ﷺ على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام ، أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها وقال : ((فمن رغب عن سنتي فليس مني)) [1] .

ثانياً: طور النطفية:

تطلق النطفة على الماء القليل وقد أطلقها الشارع على مني الرجل ومني المرأة .

---

[1] . انظر الحديث بتمامه في صحيح مسلم كتاب النكاح (٢/ ١٠٢) .

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك ، وأقام له عليها نظاماً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر ، وجوهر هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات .

إن الإنسان لم يعرف أن الجنين يتكون من اختلاط نطفة الذكر وبويضة الأنثى إلا في القرن الثامن عشر ، ولم يتأكد له ذلك إلا في بداية القرن العشرين ، بينما نجد القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة قد أكدا بصورة علمية دقيقة أن الإنسان إنما خلق من نطفة مختلطة سماها (النطفة الأمشاج) قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] وقد أجمع أهل التفسير أن الأمشاج هي الأخلاط ، وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

والحديث الشريف يؤكد هذا في السؤال الذي وجهه أحد اليهود إلى رسول الله ﷺ ليعلم صدق نبوته ، حيث قال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال ﷺ : ((من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ... فقال اليهودي : هكذا كان يقول من قبلك من الأنبياء))[١] .

ثالثاً: طور العلقة:

كلمة علقة في اللغة تعني الالتصاق والتعليق ، وتوصيف القرآن لهذا الطور يتوافق مع تعلق الجنين ببطانة الرحم خلال الأسبوع الثاني حتى نهاية الأسبوع الثالث من التلقيح ، كما يطلق العلق على الدم شديد الحمرة الجامد ، وهذا يتوافق مع شكل الجنين في هذا الطور حينما تتكون لديه الأوعية الدموية المتمثلة على شكل علقة مستطيلة ، تعمل على غرس نفسها في بطانة الرحم وتضرب جذورها بالالتصاق فيه بإفراز الأنزيمات لتثبيت وضعها ، ومن ثم تتواصل في امتصاص الغذاء من الأم بعد أن كانت تتغذى على مُحها .

رابعاً: طور المضغة:

تتكون المضغة من تطور العلقة ، ويتراوح حجمها من حبة الفول إلى حجم حبة الفاصوليا، وهي أشبه بقطعة اللحم بقدر ما يمضغ ، وقد ظهرت عليها نتوءات الكتل البدنية والرأس والصدر والبطن ، كما تتكون في هذه المرحلة معظم براعم أعضاء الجنين الداخلية ،

---

١ . رواه الإمام أحمد ومسلم رواية أخرى .

ويصـــدق عـــلى هـــذا الطـــور الوصـــف القـــرآني ﴿ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٍ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ ﴾ [الحج: ٥] ، وفي هذه الآية دلالة على أن التخليق يبـدأ في هـذا الطـور ، حيـث بـدأ القلـب في النبض ، وهذا يكون في الأسبوع الرابع ، ثم يبدأ الطور التالي في التخليق وهو طور العظام .

خامساً: طور العظام:

يتشكل الجنين في هذا الطور على صورة أخرى وتزال عنه صورة المضغة ليكتسب صورة جديدة ، حيث يتخلق هيكله العظمي الغضروفي ، وهذا يكون في بداية الأسبوع السابع .

سادسا: طور كسوة العظام:

حيث يبدأ الجنين الطور الأخير من التخليق وهـو كسـاء العظـام بـاللحم وفيـه يـزداد تشكل الجنين على هيئة أخص .

سابعاً: مرحلة النشأة خلقاً آخر:

يبدأ الجنين بعد الأسبوع الثـامن مرحلـة النشـأة خلقـاً آخـر ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] وتبدأ مرحلة النشأة في الأسبوع التاسع وتستمر هذه المرحلة في النمو حتى نهايـة الحمل .

وفي نهاية حديثي عن هذه الأطوار أحب أن أشير أن تقسيمات وتصنيفات أطوار الأجنة لم تعرف إلا في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وقد أعطيت أرقامـاً وأسـماء لهذه الأطوار والمراحل جعلت تصورها صعباً جداً كما يقول علماء التشريح ، لكن الدراسات الحديثة المقارنة بعلم الأجنة في القرآن والسنة أسفرت عن مصـطلحات جديـدة سـهلة نافعـة تجعل علم الأجنة ميسوراً وتقرب لنا هذا العلم بكل بساطة .

- السنة تحدد زمن أطوار الجنين الأول في حديث الأربعين :

أخرج الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن مسـعود قـال : حـدثنا رسـول الله ﷺ وهـو الصادق المصدوق قال : ((إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعـين يومـاً ، ثـم يكـون في

ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الـروح ، ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد)) .

يفيد الحديث أن الجمع كله يكون في أربعين يوماً، وفي رواية أخرى اثنتان وأربعون ليلـة . فيضم الجنين إلى بعضه البعض ويتكامل تكوينه في أربعين يوماً ، النطفة تأخـذ حصـتها مـن الأربعين والعلقة تأخذ حصتها من الأربعين والمضغة تأخذ حصتها من الأربعين فالجمع كلـه في أربعين يوماً وليس كما فهم بعض أهل الحديث من أن الجمع يكون في مائة وعشرـون يومـاً بسبب الإدراج الذي وقع في الحديث كما يلي : ((أن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعـين يوماً نطفة)) .

- **حديث عجب الذنب والحقيقة العلمية :**

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قـال : ((كـل ابـن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب)) والحديث فيه عدة روايات . وعجـب الذنب هو ما يسميه بعضم العصعص وهو آخر الفقرات ، يـبلى كـل شيء ويصـبح ترابـاً إلا عجب الذنب وهذه حقيقة أثبتها العلم .

- **السنة النبوية تحدد عدد مفاصل الجسم :**

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسـلم والإمـام أحمـد ((إن في الإنسـان سـتين وثلاثمائـة مفصل فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة ...)) وهذا العدد الذي حـدده الرسـول ﷺ يطابق الواقع التشريحي لجسم الإنسان .

أهم الأقدار والسنن المتعلقة بخلق الإنسان :

١. قرر القرآن والسنة النبوية أن الجنين يخلق في أطوار ومراحل ، وقد جاء هذا التوصيف لهذه الأطوار بدقة متناهية في آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ .

٢. طور النطفة هو المرحلة التي يجري فيها التحضير للتصوير الذي سيتم في طور العلقة.

٣. طور العلقة هو أهم طور في خلق الإنسان ، حيث يخرج به الجنين من عالم التقدير إلى عالم التصوير ، ولذلك أشار الله إليه في أول آيات أنزلت على رسول الله ﷺ بقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ٢] وبعد العلقة يبدأ التكوين أو التصوير ، أما التسوية فهي اكتمال التصوير أو التكوين لكل التركيبات الأساسية الداخلية والخارجية ، ويتجه الجنين نحو شكل إنسان مميز بالإضافة إلى تميز جنسه من حيث كونه ذكراً أو أنثى ، فمصير الجنين يتحدد في نهاية طور العلقة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨] .

٤. تختص مرحلة النشأة بنفخ الروح ، ومرحلة نفخ الروح التي تقع في حدود الأربعين والخمس وأربعين يوماً ، هي مرحلة التتويج الإلهي لتهيئة أعضاء الجنين للقيام بوظائفها (تشغيل الكهرباء) وهذا تعبير فيه تجاوز ولكنه للتقريب .

٥. الجمع لخلق الإنسان وتكوينه الجنيني يكون في الأربعين يوماً النطفة تأخذ حصتها من الأربعين والعلقة تأخذ حصتها من الأربعين والمضغة تأخذ حصتها من الأربعين ..

٦. لقد اكتشف العلم الحديث أنه يوجد لكل من الزوجين موروثات ، وأيها غلب على الآخر تبرز صفته الغالبة في الجنين ، ونجد مصداقاً لهذا حديث الرسول ﷺ : ((تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)) وقوله : ((ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة أصفر دقيق، فأيهما سبق أو على أشبهه الولد)) [١] ، فمن علّم الرسول ﷺ هذه الهندسة الوراثية وقوانين الجينات في عصره ؟ وهذه الصفات الموروثة المتناهية في الصغر التي تحمل (الشيفرا) والوظائف والأسرار التي لا يحيط بها ولا يدرك مداها إلا خالقها جل جلاله .

١ . مسند أحمد .

المراجع المساعدة في هذا المبحث :

١ . موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، يوسف الحاج أحمد ، مكتبة ابن حجر ، دمشق ط ١ ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

٢ . الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، د. عبد الله المصلح ، د . عبد الجواد الصاوي ، دار حياد ، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م .

٣ . القرار المكين ، د. مأمون شفقة ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة .

٤ . مطابقة علم الأجنة لما جاء في القرآن والسنة ، د. ناطق محمد النعيمي ، بغداد .

٥ . خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، د . محمد علي البار ، جدة .

٦ . الطب محراب الإيمان . د. خالص جلبي ، دمشق .

٧ . إعجاز القرآن في خلق الإنسان . د. محمد كمال عبد العزيز ، القاهرة .

٨ . الآيات الكونية ، محاضرات للدكتور زغلول النجار ، الدوحة .

٩ . آيات الله في الإنسان ، د. محمد راتب النابلسي ، دمشق .

١٠ . معجزة القرآن ، الشيخ محمد متولي الشعراوي ، القاهرة .

١١ . مباحث في إعجاز القرآن ، د. مصطفى مسلم ، جدة ، السعودية .

المبحث الثالث
نشاة التكوين

قــال تعــالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ – ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٠ – ٣٣] .

وقال تعــالى : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ١ – ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] .

وقــال تعــالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[الروم: ٢٧] .

أي وهو الذي يبدأ الخلق من غير أصل له ، فينشئه بعد أن لم يكن شيئاً ثم يفنيه بعد ذلك ، ثم يعيده كما بدأه ، وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور في عقول المخاطبين ، من أنّ فعل شيئاً مرة كانت الإعادة أسهل عليه .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((يقول الله تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)) .

يقول الدكتور موريس بوكاي في كتابه دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، يحسن أن نلخص النقاط التي يعلمنا بها القرآن فيما يتعلق بالخلق . بالاستناد إلى ما سبق (من الآيات) فهذه النقاط هي :

١ . وجود ست مراحل للخلق عموماً .

٢ . تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض .

٣ . خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة انفصلت (انفصلت إلى أجزاء محكمة) بعد ذلك .

٤ . تعدد السماوات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض .

٥ . وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .

والعلم الحديث يؤكد الآتي :

١. إن الأرض والأجرام السماوية قد تكونت (خلقت) في مراحل متعددة . وأن تكوين الأرض سابق لتكوين الأجرام السماوية حيث بردت ثم ظهر عليها التربة ثم الشجر فالدواب فالإنسان . أما الإجرام السماوية فبرد بعضها بعد الأرض بملايين السنين (كالقمر مثلاً) . ولكن ما زالت النجوم والكواكب ساخنة وما زالت النجوم تتكون الآن في الفضاء الكوني كما شاهدها العلماء حديثاً .

٢. أكد العلم تداخل نجم مثل الشمس وتابعه أو أحد توابعه والأرض تابع للشمس كما هو معروف . وقد قرر العلماء أن تكثف وانكماش مادة غازية في حالة دوران ثم انفصالها إلى أجزاء قد وضع الشمس والكواكب ومنها الأرض في أماكنها .. وتفترض النظريات الحديثة للفلك أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين وهي تدور دورانها ويتعاقب الليل والنهار عليها قبل رحوها (أي قبل استقرار قشرتها على ما هي عليه الآن من مرتفعات ومستويات وقبل أن تتباعد القارات عن بعضها البعض) .

٣. يقول العالم الفلكي (جينز) : إن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بانتظام . وأن السدائم (المجموعات الفلكية) خلقت من تكثف هذا الغاز .

٤. ويقول الدكتور (جامبو) : إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً منتظماً ومنه حدثت عمليات التكوين للأجرام السماوية والأرض .

ويقول الدكتور فاروق الباز : إن أصل الكون عبارة عن غازات خفيفة جداً . ومع هذه الغازات ذرات دقيقة جداً يمكن رؤية الضوء الذي تعكسه هذه الذرات ولكن لا يمكن تصويرها نظراً لحجمها المتناهي في الصغر وهي مظلمة (فهي لا تشع الضوء بل تعكسه) وأقرب وصف لها هو الدخان كما وصفها الله عز وجل (لأن الدخان يتكون من غازات وذرات دقيقة وهو مظلم ولكنه يعكس الضوء) .

وقد حصل منذ بلايين السنين انفجار في مركز هذا الكون المليء بالدخان وكوَّن النجوم، والنجوم هي شموس، وشمسنا هذه واحدة منها .

ومن دراستنا لصخور القمر وعينات من الشهب والنيازك وعينات من صخور الأرض اتضح أن المجموعة الشمسية كانت في يوم من الأيام كتلة واحدة ثم بدأت مكوناتها في التناثر نتيجة لانفجارات حصلت فيها . فالعناصر الثقيلة لم تبتعد عن مركز المجموعة وكونت الكواكب الداخلية (الأرض ، والمريخ، والزهرة، وعطارد) وتتكون عناصرها من المعادن والسيليكات، أما العناصر الخفيفة فقد ابتعدت عن مركز الانفجار وكونت الكواكب الخارجية (المشتري ، بلوتو ، نبتون، وأورانوس) وتتكون في معظمها من غازات مثل الهيدروجين والهيليوم والماء .

إذن نستنتج من هذا أن الأرض والأجرام السماوية المشاهدة لنا في السماء كانت متصلة بعضها ببعض ثم انفصلت بطريقة محكمة وضعت كل جزء في مكانه الصحيح . والدليل على هذا أن التركيبات الكيماوية للكواكب الأرضية (الداخلية) مماثلة تماماً للأرض ثم أن عمر صخورها متقارب جداً .

٥. إن تعدد السماوات الذي عبَّر عنه القرآن بالرقم (٧) يلقى من العلم الحديث تأكيداً له، وذلك بفضل ملاحظات علماء الفلك عن نظم المجرات وعددها العظيم ، وما يزال علم الإنسان بالكون بسيط جداً . فسبحان الذي خلق فسوى .

أما بالنسبة للأرض فلا يُعرف إن كان هناك شبهاً لها في الكواكب الأخرى ولكن الثابت علمياً أن الأرض مكونة من ٧ طبقات :

١ . الغلاف الهوائي ، فنحن البشر نعيش في بحر الهواء كما تعيش الأسماك في بحر الماء .

٢ . الغلاف المائي .

٣. القشرة الأرضية .

٤ . طبقة من السليكات الخفيفة والثقيلة .

٥ . طبقة من الأكاسيد والكبريتيدات .

٦ . نواة الأرض المكونة من الحديد والنيكل المنصهر .

والذي يؤيد القول بأن الأرض سبع أرضين متلاصقة ببعضها أن القـرآن ذكـر الأرض بالمفرد دائماً وذكر السماوات بصيغة الجمع في الغالب، وإذا ذكرت السماء بالمفرد فإنها تعنـي في اللغة العربية العلو .

٦ . أثبت العلم أن هناك مادة كونية منتشرة بين السماء والأرض وبين المجرات عموماً .

هذه المادة الكونية (الدخان) هي أصل النجوم والكواكب، ذلـك لأن العلـم الحـديث أكد تكون النجوم في الوقت الحالي من هذه المادة ، هذه المادة الكونيـة قـد تعـادل كتلـة جميـع المجرات برغم كثافتها القليلة نظراً لأنها تحتل كل الفضاء الـذي يفصـل بـين المجـرات وهـو فضاء متناهٍ في البعد والسعة .

وهذا ما أكده القرآن الكريم من حيث وجود خلـق وسـط بـين السـماوات والأرض .. وصدق الله وصدق رسوله الذي نطق بالحق قبل أن يعرف العلماء من علم الكون شيئاً .

آيات الكون في القرآن الكريم

يقـول أ . د . زغلـول راغـب النجـار في موسـوعة الإعجـاز العلمـي في القـرآن والسنة (ص ١٣١٦) :

إن القرآن الكريم كتاب هداية أنزله الله عز وجل لتوضيح أمور لا يستطيع عقل الإنسان وحده إن يعلمها مثل جوهر الإيمان والعبادات ومبادئ الأخلاق والقوانين التي تحكم تعاملات الناس بعضهم مع بعض .

بالإضافة إلى هذه الأمور ، فإنّ القرآن الكريم يتعرض إلى الكون بما فيه من السماوات والأرض وعناصرها المتعددة وسكانها وظواهرها في أكثر من (١٠٠٠) آية بهدف الاستشهاد بقدرة الخالق عز وجل غير المحدودة وعلمه وحكمته تعالى الذي خلق هذا الكون والقادر أن يخسف به ثم يعيده تارة أخرى ، وبالتالي لم يكن الهدف من آيات القرآن الكريم التي لها علاقة بالكون توفير بعض المعلومات العلمية ، حيث عنى الله عز وجل أن تَتِمَّ عملية اكتساب العلم عن طريق الملاحظة والاستنباط والتجربة ، والذي يحدث على فترة طويلة من الزَّمان بسبب محدوديّة حواس الإنسان وطبيعة العلم التّراكمية ، ومع ذلك فلا بدَّ لآيات القرآن الكريم أن تحمل عدَّة حقائق علمية غير قابلة للجدل عن الكون بما أنها كلمة موحاة من الخالق عز وجل وبالتالي الحقيقة المطلقة .

من هذه الآيات (٤٦١) آية تذكر الكرة الأرضية لوصفها ككل أو لوصف قشرتها الصخرية الخارجية أو التربة الواقعة فوق تلك القشرة ، أمَّا الآيات التي لها مدلول جيولوجي فهي أكثر من (١١٠) آيات ، ويمكن تقسيمها إلى (١١) مجموعة :

١ . آية واحدة تأمر الناس بالسير في الأرض والملاحظة والقيام بالاستنباط من خلال ملاحظاته عن أصل الخلق : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[العنكبوت: ٢٠] .

٢ . مجموعة من الآيات التي تشير إلى شكل الأرض :

(الرعد: ٣١) (الحجر: ١٩) (الشعراء: ٢٨) (الزمر: ٥) (ق: ٧) (الرحمن: ١٧) (الطلاق : ١٢) (الملك : ١٥) (المعارج : ٤١،٤٠).

وحركاتها :

(الأنبياء : ٣٣) (يس : ٤٠) (النمل : ٨٨) (الرعد : ٣) (الشمس ١ – ٤) (الليل : ١-٢) (يونس : ٦٧) (النبأ : ١٠-١١) (النمل : ٦١-٦٣) (آل عمران : ٢٧) (العنكبوت : ٦١) (لقمان : ٢٩) (فاطر : ١٣) (الحديد : ٦) (يس : ٣٧) (البقرة : ١٦٤) آل عمران : ١٩٠) (يونس : ٦٧) (المؤمنون : ٨٠) (الجاثية : ٥) (إبراهيم : ٣٣) .

وأصلها :

(الأنبياء : ٣٠) حيث توصف السماوات والأرض بوضوح بأنهما كانتا وحدة واحدة في الماضي البعيد حتى فتقهما الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وهذا ما يوصف بنظرية الـ **BIG BANG** (الإنفجار العظيم) الحالية لتكوين الكون تتضمن هذه المجموعة أيضاً آيات تشير إلى مواقع النجوم المتباعدة (الواقعة : ٧٥،٧٦) وطبيعة الكون الدائم المتمدد (الذاريات : ٤٧) وطبيعة السماء المدخنة في أول خلقها (فصلت: ١١ ، ١٢) ووجود مادة ما بين النجوم (المائدة : ١٧ ، ١٨) (الحجر:٨٥) (طه: ٦) (الأنبياء: ١٦) (الفرقان: ٥٩) (الشعراء: ٢٤) (الروم: ٨) (السجدة: ٤) (الصافات: ٥) (ص: ١٠ ، ٢٧ ، ٦٦) (الزخرف: ٨٥) (الدخان: ٣٨،٧)

(الأحقــاف: ٣) (ق: ٣٨) (النبــأ: ٣٧) وطبيعــة الكــون (الملــك: ٣) (نــوح: ١٥) (الطلاق: ١٢) .

٣. آية واحدة تقرر أن الحديد أنزل إلينا ، وتقرر بالتالي مصـدره الكـائن خـارج الكـرة الأرضية (الحديد : ٢٥) .

٤. آية واحدة تصف الأرض بأنها متصدعة (الطارق : ١٢) .

٥. مجموعة من الآيات تصف بعض الظواهر البحرية المكتشفة حديثاً :

أ – الطبيعة المتوهجة لقيعان بعض البحـار والمحيطـات والتـي تصـف نشـاطاً بركانيـاً شديداً تحت البحر مما يؤدي إلى تمدد قاع البحر (الطور : ٦) .

ب – الفصل التام بين المياه المختلفة مثل المياه المالحة والمياه العذبة ، أو بـين الميـاه المالحـة ذات المكونات المختلفة بعضها عن بعض التي لا تختلط بتاتاً أو مبـاشرة بسـبب وجـود دائـم لسدود بينهما لا يمكن اجتيازها (الفرقان : ٥٣) (الرحمن : ١٩، ٢٠) .

ج– الظلام الدامس الكائن في أعمق أعماق المحيطات بسبب التيارات العميقـة تعلوهـا التيارات السطحية تعلوها السحب (النور : ٤٠) .

٦. آية تصف الجبال بأنها أوتاد (النبأ : ٧) مشيرة إلى الحجم الأصغر الكائن فوق سطح الأرض مقارنة بالجزء الأكبر منها المدفون تحت سـطح الأرض كالجـذور ودورهـا في تثبيـت القارات والكرة الأرضية ككل .

يؤكد هذا الـدور للجبـال عشرـة آيـات أخـرى التـي توصـف أدواراً أخـرى للجبـال كدورها في تكثيف البخار إلى مطر وفي تكوين منابع الأنهار : (الرعد : ٣) (الحجر : ١٩) (النحل : ١٥) (الأنبياء : ٣١) (النمل : ٦١) (لقمان: ١٠) (ق: ٧) (المرسـلات: ٢٧) (النازعات : ٣٢) في سورة (الغاشية : ١٩) يحضُّ القرآن الكريم الإنسان على ملاحظة كيفية انتصاب الجبال لكي تقف فوق سطح الأرض ، وقد أدَّت هـذه الملاحظـة إلى تكـوين نظريـة

التضاغطية (وهي الخضوع لضغط متساوٍ من جميع الجهات) والتي يفسر بها انتصاب الجبـال والمرتفعات الأرضية الأخرى فوق سطح الأرض .

أما في (آية ٢٧ من سورة فاطر) فيصف القرآن الكريم الجبال بأنها مكونـة مـن أجـزاء بيضاء وحمراء تتباين درجات ألوانها وأخرى شديدة السواد .

تشير هذه الآية بشكل صريح إلى الجبال الحمضية التي يغلـب عـلى تكوينهـا الغرانيـت الذي يظهر في جميع درجات اللونين الأبيض والأحمر ، والجبال القلويـة وفـوق القلويـة التـي يغلب على تكوينها البازلت والجابرو بالإضافة إلى معادن حديد المغنسيوم السوداء اللون ، كلٌّ من هذه المجموعات الصخرية الأولية الرئيسية لها تكوينها الكيميـائي والمعـدني الخـاص بهـا بالإضافة إلى درجة الحرارة أيضاً في نتاجها الثانوي والثالثي من الصخور الرسوبية والمتحولـة وبالتالي تظهر أهمية هذه الألوان الثلاثة (الأبيض والأحمـر والأسـود) في تصـنيف الصـخور البركانية ومشتقاتها .

٧. مجموعة من الآيات تركز على الغلافين المائي والجوي للكرة الأرضـية اللـذين يـذكر القرآن الكريم بشكل واضح أنهما أخرجا من الكرة الأرضية (النازعـات : ٣٠ ، ٣١) وهـي حقيقة لم يكتشفها العلم إلا قريباً .

آيات أخرى في هـذه المجموعـة تـذكر خاصـية الغـلاف الجـوي في حمايـة الحيـاة عـلى وجـه الأرض (الأنبيـاء : ٣٢) (الطـارق : ١١) وطبيعـة الفضـاء الخـارجي الـدامس الظلام (الحجـر : ١٤ ، ١٥) وانخفـاض الضـغط الجـوي مـع الصـعود (الأنعـام : ١٢٥) والطبيعة المتوهجة لليالي في أول الخلق قبل تكـوين الأغلفـة الجويـة الواقيـة للكـرة الأرضـية (الإسراء : ١٢) .

٨. مجموعة من الآيات تصف رقة القشرة الأرضـية (نـوح : ١٩) والتسـوية والتعريـة المستمرة التي يتعرض لها سطح الأرض ، والتغيـير التـدريجي للأبعـاد الجغرافيـة للقـارات ،

وحتى عملية الانكماش التي تتعرض لها الكرة الأرضية ككل بالإضافة إلى تشويه سطحها (الرعد : ٤١) (الأنبياء : ٤٤) (النبأ : ٦) .

٩. آيات تؤكد أنَّ أصل المياه الجوفية من الأمطار مشيرة إلى الدورة المائية الجيولوجية (الحجر : ٢٢) (الحج : ٥) وأخرى تربط بين الحياة على الأرض والماء (الأنبياء : ٣٠) (النور : ٤٥) وأخرى تشير إلى إمكانية تصنيف أنواع الحياة على الأرض (الأنعام : ٣٨) .

١٠. آيات تؤكد أن عملية الخلق حدثت على فترات زمنية طويلة وفي مراحل متتالية (فصلت : ٩ ، ١٢) (السجدة : ٥) .

١١ . آيتان تصفان نهاية كوكبنا والكون كلّه عن طريق انعكاس عملية الخلق أو ما يسمى علمياً بالـ **Big Crunsh** أو (السحق الكبير) (الأنبياء : ١٠٤) ثمَّ خلق الكون الأبدي بعد ذلك (إبراهيم : ٤٨) .

لم يكن هذا العلم متوفراً قبل بداية القرن الماضي ، ولم نبدأ في فهم إلا القليل من الملاحظات العلمية عن طريق تحليل دقيق لها .

تشير أسبقية القرآن الكريم إلى هذا العلم الدقيق الشامل إلى واحدة فقط من دلائل الإعجاز لهذا الكتاب الكريم والذي يمثل آخر رسالة إلهية للبشرية والرسالة الوحيدة التي تم الحفاظ عليها في نفس لغة الوحي كلمة كلمة وحرفاً حرفاً لأكثر من (١٤ قرناً) من الزمان .

يتضح من المناقشة السابقة أن الآيات القرآنية التي لها إشارات جيولوجية تزيد عن (١١٠) آيات وتحتاج إلى كتب ضخمة لشرحها ، وبالتالي نركز في المقالات القادمة فقط على بعض هذه الآيات التي تمثل معلومات ومفاهيم مؤكدة في مجال علوم الأرض ونذكرها فقط كأمثلة للطبيعة الإعجازية للقرآن الكريم . أ . هـ .

مولد الكون

هذا الكون الشاسع والواسع لا يرى الإنسان له حدوداً كان محطَّ تساؤل الإنسان وفضوله منذ القديم ، وكانت الأسئلة في ذهنه حوله كثيرة وصعبة ، مثل :

كيف ظهر هذا الكون إلى الوجود ؟ وما عمره ؟ أحَادِثٌ هو أم قديمٌ وأزليٌ ؟ وهل يمكن أن يكون هناك أزليان : خالقٌ أزلي وكونٌ أزلي ؟

هذه بعض الأسئلة التي كانت محلَّ نقاش بين الفلاسفة المؤمنين مئات الأعوام . أمَّا الفلاسفة الملحدونَ فكانوا يدَّعون أنَّ الكونَ لا يحتاج إلى خالق ، لأنَّ المادَّة أزليةٌ ، أي وُجِدَت من القديم .. أي كانوا يضيفون إلى المادة إحدى صفات الخالق وهي صفة الأزلية ، لذا كان من ضمن قوانينهم الفيزيائية (لا يمكنُ خَلْقُ المادَّة من العدم ، كما لا يمكن إفناء المادة) .

ولكن الإمام أبي حامد الغزالي – رحمه الله – كان أول من حلَّ مشكلة قِدَم العَالَمَ ،وأجاب على جميع المشاكل المثارة حول مدة الترك ، أي الفرق الزماني بين الأزل وبين بدء خلق الكون ، فقال : بأن الكون حادث وأنه لم يكن قبله زمان .. أي أنَّ الزَّمان والمكانَ بدأا بعدَ خلق الكون ، لأنَّ الزَّمن مرتبط بالحركة ، ولو تصوَّرنا أنَّ كلَّ شيء في الكون قد سَكَنَ وتوقَّف إذن لتوقْف الزمنُ ، أي لم يَعُد هناك زمان . وهكذا فمن الخطأ توهم وجود زمان قبل خلق الكون .

وعندما أشارات النظرية النسبية إلى أنَّ الزَّمن بُعْدٌ رابع كان من البديهي عدم وجود الزمن في عالم لم تخلق بعد أبعاده الأخرى .

لا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل فلسفية قد يسأم منها القارئ ولا يستسيغها . ولكننا نريد أن نشير هنا إلى آخر نظرية علمية حول مولد الكون ، وكيف أنها أثبتت بأدلة علمية بأن الكون حادثٌ وأنه وُلِد قبل كذا مليار سنة .

الكونُ بين السُّكونِ والحَرَكَةِ

والحقيقة أن اكتشاف الإنسان لظاهرة الإشعاع كان أوَّل ضربة لنظرية أزلية المادة ، فما دامت الشمس وجميع النُّجوم الأخرى مشتعلة وتبعث الإشعاعات ، إذن فلا بدَّ من وجود بداية لها ، لأنّها لو كانت أزلية لنفذ وقودها منذ مليارات السنوات .

ولكن العلماء الملحدين تناسوا هذه الحقيقة الظاهرة لكل عين واستمروا في الدفاع عن كون أزلي لا يحتاج إلى خالق . وكانت نظرية (الكون المستقر Steady State) التي كانت هي النظرية المقبولة في الأوساط العلمية حتى منتصف القرن العشرين تقول بأن الكون ساكن وهو لا نهائي في الزمان والمكان .

كان هذا الأنموذج للكون يريح الفلاسفة الملحدين ويقدم لهم سنداً علميَّاً ، أو على الأقل لا ينقض أهم دعوى عندهم وهي أزلية المادة .

ولكن علم الفيزياء كان يقدم وسيلة مهمة في معرفة العديد من خصائص الأجرام السماوية والنجوم ، فقد كشف (فاستو مالفن سيلفر) عام (١٩١٣م) أنّ بعض الأجسام التي كان يعتقد سابقاً أنها غبار كوني ، تبتعد عنا بسرعة (١٨٠٠ كم / ثانية) وكان هذا الاكتشاف مفاجأة كبيرة للعلماء ، ولم تكن تلك الأجسام إلاّ مجرات بعيدة عنا .. ثم أعلن (أدوين هوبل) عام (١٩٢٩ م) قانونه المعروف : (إنَّ المجرات تبتعد عنا بسرعة تتناسب طردياً مع بعدها عنا) .

وقد تبين فيما بعد أنَّ المجرات لا تبتعد فقط عنّا ، بل هي تتباعد فيما بينها كذلك . وكان هذا يعني أنَّ الكون يتوسع على الدوام ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] .

المراجع المساعدة

١ . أسرار الكون بين العلم والقرآن ، المهندس عبد الدائم الكحيل .

٢ . آيات الله في الآفاق ، د. محمد راتب النابلسي .

٣ . الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن ، د. عبد العليم عبد الرحمن خضر .

٤ . الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم ، د. سليمان عمر قوش .

٥ . الموسوعة العلمية في القرآن والسنة ، يوسف الحاج أحمد .

٦ . الكون والإعجاز العلمي في القرآن ، منصور محمد حسب النبي .

٧ . أسرار الكون في القرآن ، داود سليمان السعدي .

٨ . مختصر مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية ، أحمد بن حمد الصديق الغماري .

٩ . موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي على الشبكة العنكبوتية **www.nooran.org**.

١٠ . من الذرة إلى المجرة ، حماد أحمد العايدي .

المبحث الرابع

من آيات الله وسننه في الأنفس والآفاق

إن عبادة التفكر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض ، كتاب الله المنظور بكماله وجماله ، الناطق ببديع صنعه وإتقان خلقه سبحانه وتعالى ، من أجلّ العبادات وأعلاها ، حيث يدرك الإنسان من خلالها حُسن الدليل على معرفة الجليل ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ١ – ٤] ، فهذا الإتقان وهذه العناية الفائقة ، والتراكيب الدقيقة الموزونة ، التي لا نرى فيها عوجاً ولا أمتاً ولا قصراً ولا خللاً ولا عيوباً ولا تفاوت ، لم تكن عبثاً ن ولم تأت صدفة ، لأن الصدفة لا تكون عامة منتظمة ، ولا تكون متكررة مستمرة مضطردة ، لأن المصادفة تعني الندرة في الحدوث وعدم التكرار .

وفي هذا الكتاب سوف نشير – بعون الله – بطريقة سريعة إلى بعض النماذج من الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالالتها في القرآن والسنة بصفة عامة :

أولاً : البصمات وشخصية الإنسان :

قال الله جل ثناؤه : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١ – ٤] .

التفسير اللغوي : قـال ابـن منظـور في لسـان العـرب : أطـراف الأصـابع في اليـدين والرِّجلين والبنانة : الإصبع كلها ، وتقال للعقدة من الإصبع .

فهم المفسرين : قال القرطبي في تفسير الآية : البنانُ عند العـرب الأصـابع : واحـدها بنانة.

قال القرطبي والزجاج : ((وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقـدر عـلى جمـع العظـام فقال الله تعالى : بلى قادرين على أن نعيد السُّلاميات على صغرها، ونؤلف بينها حتى تسـتوي، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر)) .

ويجدر بنا ان نلفت النظر إلى ان العلماء لم يكـن بـين أيـديهم مـن وسـائل طبيـة حديثـة توصلهم إلى ما اكتشفه علماء التشريح بعد ذلك بقرون ، مما يعرف اليوم بالبصمة وأهميتهـا في البحث الجنائي ، إذ لا تشابه بين بصمات الناس ذكوراً كانوا أم إناثاً ، فسبحان الحكيم العليم ، وهناك دراسات عن اختلاف في الألسنة والأصوات ، وأن لكل إنسـان بصـمة خاصـة بـه في ذبذبات صوته ، للتعامل معها في الصراف الآلي بدلاً من التوقيع ، والإنسان مليء بـالأسرار ، سبحان الخالق العظيم .

ثانيا : الجلد ودوره في الإحساس :

قـــال تعـــالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ٥٦] .

كان الاعتقاد في القديم أن الجسم كله حساس لـلألم ، ولكـن أثبـت العلـماء حـديثاً أن المصاب باحتراق الجلد كاملاً لا يشعر بالألم كثيراً نتيجة تلف النهايات العصبية الناقلة لـلألم ، وقد بين الله سبحانه أن الجلد هو محل العذاب ، فعندما يتلاشى الإحساس بألم العذاب يستبدل بجلد آخر ، وكذلك أشارت آية أخرى أن الأمعاء لهـا دور كبـير في الإحسـاس قـال تعـالى : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴾ [محمد: ١٥] .

ثالثاً : السمع والبصر والفؤاد بين الطب والقرآن :

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨]

ولقد ذكر السمع في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية قبل البصر ، انظر السجدة : ٩ ، وانظر النحل : ٧٨ ، وانظر الإسراء : ٣٦ ، والإنسان : ٢ ... فما السر في ذلك ؟

لقد أظهر التقدم العلمي في علم الأجنة وجهاً آخر من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم . فإن ترتيب الحوار في الآيات كلها ترتيب مقصود ، فالطفل عندما يولد يسمع ولا يرى لعدة أيام ثم يبدأ في تمييز الضوء والظلام ولا يرى إلا بعد خمسة عشر يوماً تقريباً . والسمع والبصر يمثلان العقل لأنه بدونهما لا يعقل الإنسان ولا يدرك ، والبناء الوظيفي يكون قد اكتمل للمخ ، ويأتي الفؤاد ليمثل العاطفة العاقلة ، فمن أخبر محمداً ﷺ بترتيب الحواس قبل ١٤ قرناً من الزمان ؟.

أما الناصية فهي الجبهة مقدمة الدماغ التي هي مركز اتخاذ القرار والإرادة كما أثبت العلم ذلك حديثاً ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق: ١٥ – ١٦] .

رابعاً : إعجاز القرآن وآياته في النباتات :

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ [الأنعام: ٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠] .

نستنتج من هذه الآيات ما يلي :

١ . أن النبات هو المصنع الوحيد للغذاء على وجه الأرض .

٢ . أن النبات يحتوي على مادة خضراء (اليخضور) الذي هو مصدر كل أنواع الحبوب والثمار .

٣. أن الشجر الأخضر الذي يحتوي على مادة اليخضور يختزن طاقة هي مصدر النار .

أثبت العلم أن مادة اليخضور (الكلوروفيل) الموجودة في بلاستيدات النباتات الخضراء عبارة عن مخزن ، حيث تخزن الطاقة الشمسية فيه بقوالب كيماوية (الطاقة الكامنة) فالنار التي تخرج حين الاشتعال ما هي إلا الطاقة الشمسية المختزنة ، فسبحان الخالق العظيم .

خامساً : إعجاز النبي في حديثه عن عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً :

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ أنه قال : ((... ولن تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً)) الحديث. أثبتت الأبحاث والدلائل والقرائن أن جزيرة العرب كانت مروجاً وأنهاراً مما يتطابق مع النصف الأول من إشارة النبي ﷺ ، أما الشق الآخر هو عودتها كما كانت ، فهذا ما أكده علماء الفلك والأرصاد الجوية ، وهو أن تغير المناخ على سطح الأرض يرشح الجزيرة العربية لتدخل في طور المناطق الممطرة .

سادساً : تكوين اللبن من الغذاء الذي تأكله الأنعام :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦] .

أثبت العلماء في العصر الحديث طريقة تكوين اللبن من الغذاء الذي تأكله الأنعام ، وأنه يمر بمرحلتين ، مرحلة كان فيها بين الفرث ، وأخرى كان فيها بين الدم .

سابعاً : العسل والنحل بين الطب والقرآن :

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨ – ٦٩] .

أثبت العلم بإعجاب ودهشة أن النحل أمة منظمة ، كما أنه مسير بنظام من المعلومات تحكمه قوانين دقيقة تؤدى في مهارة ودقة ، مما يتوافق مع إشارات القرآن الكريم ، والقرآن يؤكد الفوائد المطلقة لعسل النحل من حيث قيمته العلاجية والغذائية ، وأن الشراب مختلف الألوان فيه شفاء ويعتبر مخزناً كاملاً لكثير من العقاقيرالعلاجية والوقائية ، كما أنه غذاء شهي مفيد ، وبهذا تعتبر صيدلانية متجولة .

ثامناً: مجتمع النمل بين العلم والقرآن :

النملة حشرة اجتماعية راقية موجودة في كل مكان ، بل إن أنواع النمل تزيد على تسعة الآف نوع ، والنملة حشرة ذات طابع اجتماعي ، فإذا عزلت عن أخواتها ماتت ، فهي كالإنسان إذا عزلته في مكان بعيد عن الضوء والصوت والساعة والزمن والليل والنهار عشرين يوماً فقد توازنه .

وتعلم النملة الإنسان درساً بليغاً في التعاون والنظام ، قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[الأنعام: ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[النمل: ١٨] ، لقد أثبت الله جل جلاله من خلال هذه الآية الكلام للنمل ، ونوعاً من المعرفة ، وللنملة مخ صغير وخلايا عصبية وأعصاب لتقدير المعلومات كي تهتدي بها إلى مواقع الغذاء وإلى مساكنها ، وهي ترى بموجات ضوئية يراها الإنسان ، ولغة النمل كيماوية لها وظيفة التواصل والإنذار ، ولا تستطيع أن تدخل مسكنها إلا إذا بينت كلمة السر ، وللنمل جهاز هضم مدهش ، فيه فم ومريء ومعدة وأمعاء وجهاز مص وضخ ، وللإمام علي رضي الله عنه كلام غريب وعجيب في النمل ذكره الشيخ محمد راتب النابلسي في كتابه الإعجاز العلمي ، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

تاسعاً : الذباب والعلم الحديث :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣] ، جاء التحدي للإنسان بالخلق في أبسط الحشرات تركيباً ، لأنها أقل كرومسمات ، ومع ذلك لا يستطيع ، واكتشف الباحثون أن الذباب لو أخذ شيئاً مثل السكر فإنه يسكب عليه العديد من الخمائر بحيث لا يمكن الحصول عليه مرة أخرى .

وجاء في الصحيحين أن الرسول ﷺ قال : ((إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه (أي اغمسوه) فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء)) وقررت البحوث الطبية ذلك ، وإذا نظرنا إلى حالة البؤس والحرمان والمجاعة التي يعاني منهما أغلب سكان الأرض وأنه كلما وقعت ذبابة في الطعام ترك فسوف يموت الناس جوعاً ، لأن الذباب في تلك المناطق كثيراً جداً ، ولذلك جعل الله الوقاية في جناح الذبابة الآخر ، ولله في خلقه حكم وشؤون ، ولا يوجد في هذا الكون شيء عبث ، ولكن كل شيء بتقدير وحكمة .

عاشراً : علم الفلك ودلالاته العلمية في القرآن الكريم :

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢] وقال تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[الحج: ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾[المعارج: ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ [الحجر: ١٤] ...

من الآيات السابقة يمكن استنتاج ما يلي :

أ . أن السماء رفعت بقوانين ومعادلات موزونة ومحكمة ، ثابتة كلية مطلقة ، ومنها المعادلة التي تقول : قوى التجاذب = طاقة الحركة . فالكواكب والنجوم والأجرام السماوية موضوعة في الكون بأبعاد ثابتة بين بعضها البعض بصورة تضمن عدم السقوط والتصادم والاضطراب . وتتضح دقة المعادلة والتوازن بين طرفيها في قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧] .

ب . أن السفر في الفضاء يتم في مسارات منحنية وليس في خطوط مستقيمة .

جـ . أن السماوات والأجرام السماوية رفعت بأعمدة غير مرئية (خطوط التجاذب المغناطيسي) أطلق عليها القرآن مصطلح الأفلاك ، السباحة ، وأطلق عليها العلم الحديث مصطلح المدارات .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فالأرض تدور حول نفسها وتطوف حول الشمس في مدار اهليلجي بيضاوي منغلق ، والكل يسبح ويطوف في فلك خاص وليس في خط مستقيم .

قال تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١ – ٣] ، لقد كانت الفكرة السائدة أن الشمس هي التي تجلي النهار ، ولكن العلم الحديث أثبت أن النهار هو الذي يجلي ضوء الشمس (فكرة ابن الهيثم) .

قال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الانشقاق: ١٦ – ٢٠] ، في هذه الآية يقسم الله بالشفق وهو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب والليل وما حوى من أحداث ومشاعر وعوالم خافية ونجوم لامعة وكواكب كثيرة ، والقمر إذا اكتمل نوره وعرف الإنسان حقيقته ، يقسم الله بهذه الأشياء العظيمة التي تنطوي على معارف ومعلومات علمية كبيرة ، أن الإنسان سيغزو

الفضاء مرحلة بعد مرحلة ومحطة بعد محطة ، وصدق الله العظيم حيث يقـول : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[الـرحمن: ٣٣] وقال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، لقد كشف العلم الحديث أن الأكسجين في الهواء ينقص كلما ارتفع الإنسان إلى الأعلى ، حيث يزداد الضغط ويضيق الصدر ويعاني الإنسان من صعوبة التنفس ، ولهـذا فـإن الطائرات مزودة بكمامات الأكسجين لكي يستعملها الركاب عند اللزوم ، ولا شـك أن هـذا يشكل اتفاقاً رائعاً للآية القرآنية مع الكشف العلمي الحديث .

فكيف استطاع محمد ﷺ أن يعرف هذه الأمور قبل أربعة عشر قرناً في وقت كان البعير فيه وسيلة الاتصال . ثم يقول الله سبحانه للناس : فما لكم لا تؤمنون بعد أن اتضح لكم آيات الله في الأنفس والآفاق ؟!.

وهناك آيات تتحدث عن تمدد الفضاء واتساعه، وعن التطابق بين العلم وآيات القرآن، تداخل الليل والنهار ، وانسلاخ النهار من الليل ومنـازل القمـر ومواقـع النجـوم ووظائفهـا وأنواعها .. لا يتسع المقام لذكرها .

حادي عشر : الإعجاز القرآني في وصف الأرض والجبال :

ذكر القرآن الكريم سنن وقـوانين ربانيـة يتعلـق بوصـف الأرض والجبـال والجغرافيـا المناخية لا يتسع المقام لبيانها ، نذكر منها بعض النماذج .

قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ ﴾[النمل : ٨٨] ، فالرائي يرى الجبال فيظنها جامدة لا تتحرك مع أنها تسـير بسرـعة كالسـحاب ، فإذا كان السحاب يسير مسرعاً محمولاً على الرياح ، فإن الجبال محمولة أيضاً وليس لها حامـل

إلا الأرض ، فالأرض تدور حول نفسها حاملة الجبال ، فالجبال تسير بسرعة محمولة على الأرض كالسحاب الذي يسير بسرعة محمولاً على الرياح .

وقد اختلف المفسرون في معنى هذه الآية ، فقال بعضهم أنها نزلت في يوم القيامة ، ولكن هذا بعيد عن الصواب ، لأن الآية لا تعبر عن يوم القيامة ولكن تعبر عن دوران الأرض، مع ملاحظة أن كلمة (تحسب) لا تتفق مع مشاهد يوم القيامة الذي لا شيء فيه سوى اليقين، وأن الجبال يوم القيامة تكون قد نسفت ، ولقد فطن الإمام الزمخشري إلى أن السير هذا في الدنيا وليس في الآخرة مستدلاً على ذلك بمقتضى قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٦ – ٧] ، فالقرآن الكريم يؤكد في هذه الآية بأن الجبال تشبه الأوتاد شكلاً ووظيفة ، وقد أثبت العلم الحديث أن للجبال جزءاً ظاهراً على الأرض وجزءاً آخر أكبر في باطنها ووظيفته تثبيت الأرض وحفظ توازنها .

الثاني عشر : إعجاز القرآن في الحديث عن المياه والأمطار والرياح والبحار :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم: ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ١٤ – ١٦] .

من الآيات الكريمة السابقة نخرج بالمفاهيم الآتية :

أ . النوع الأول من السحب هو النوع الركامي والذي يشبه الجبال ، وهذا النوع الركامي ينزل منه المطر ويشكل البرد ويصحبه عمليات برق .

ب . النوع الثاني من السحب هو النوع (البساطي) .

جـ . الرياح لها دور كبير ورئيسي في تشكيل السحب وإنزال المطر فيما بعد ، فالرياح لواقح للسحب ، ويتوقف نزول المطر على هذا التلقيح .

د . الماء يخزن في الأرض على أشكال مختلفة في جوف الأرض بقدرة الله تعالى .

هـ المطر التضاريسي ينزل بتسخير الله للجبال الشاهقة التي تعمل كالمصيدة لتبريد السحب وإنزال المطر .

و . أن ماء المطر ينزل دفعة دفعة نتيجة العصر المتكرر للسحاب ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨] .

* أما بخصوص البحار، قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٢] قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠] .

أهم ما تشير إليه الآيات السابقة من حقائق :

أ . أشار القرآن الكريم بدقة متناهية إلى وصف الحاجز المائي بين البحرين بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر وأن بينهما حجراً محجورا .

ب . أشار القرآن الكريم إلى وجود ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض داخل أعماق البحار ، وقد اكتشف العلماء ذلك في العصر الحديث بسبب انكسار الأشعة وانعكاسها من حركة الأمواج التي تحجب الضوء .

جـ . أن ملوحة ماء البحار مهمة جداً مخافة فساد المياه مع الزمن الطويل . إلى غير ذلـك من الحقائق ...

والحقيقة أن الحديث عن آيات الله وسننه في الأنفس والآفاق بحر ما له ساحل، وصدق الله العظيم حيـث يقـول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] ، فهناك آيات تتعلق بالإعجاز التشريعي والغيبي والعاطفي والطبي والتربوي والنفسي والفني ، والمحرمات والمباحات مـن المشـروبات والمطعومـات إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز وآيات تتعلق بالحيوانات والطيور والأسماك ومجتمع العناكـب و ... و ... وهناك توجيهات نبويـة معجـزة في هديـه ﷺ تتعلـق بالحجامـة والحجـر الصـحي والختان والتداوي والحمية والوقاية والنظافة واستعمال السواك والحديث عـن سـنن الفطـرة ، وترك الغضب، وتوجيهاته في مجال الطب الروحاني لا يتسع المجال لذكرها ، ولكن يكفينا من العقد ما يحيط بالعنق ، وإن لم يصبها وابل فطل .

ويمكننا أن نشـير إلى بعـض المراجـع المسـاعدة لمـن أراد التواصـل مـع هـذه المباحـث واستكمالها . بعد الإجابة عن السؤال التالي :

لِمَ يَكتَشِفُ الغَرْبُ الحَقَائِقَ دون المسْلِمِينْ ؟

يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني مجيباً عن هذا السؤال في لقاء معه في قناة الجزيرة : أحبُّ أن أذكُرَ أولاً حادثتين من أهم الحوادث في هذا الصدد .. لقد كنَّـا في مـؤتمر دوليٍّ في الريـاض وكان قد رتب لهذا المؤتمر الدولي في الطب القسم الطبي في الحرس الوطني ، وحضرـه قرابـة (٢٥٠٠) طبيب وفي ذلك المؤتمر وقف البروفيسور (تاجاتا تاجا سـونج) مـن تايلانـد وهـو عميد كلية الطب هناك في جامعة (شانج مـاين) وبعـد أن أدلى بِـدَلْوِه في أبحـاث الإعجـاز العلمي ووقف أمام الجميع وأعلن إسلامه أمام المؤتمر .

ومرة أخرى كنا في مؤتمر الإعجاز العلمي في (موسكو) وفي ختام المؤتمر وقف أيضاً عالم روسي من أصل غير إسلامي – يعني من الأصول النصرانية – يقول : لنا أربعة أيام ونحن نشاهد المعجزات ، ونحن نسمع عن الدلائل التي تشهد لنا أن محمداً رسول الله ، إني أحبُّ أن أُعلن لكم في هذا المكان انتمائي إلى الإسلام وأعلن وأقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله .. وأخذ يكررها ثلاثاً أمام الناس .

أما أن الغرب هو الذي يكتشف هذه الحقائق وقبل أن يكتشفها المسلمون ، هذا هو للأسف المستوى العلمي الذي وصلنا إليه ، هذه الحقائق الله أخبر أنها ستُعرف عندما تُرى ، ولذلك قال تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ فمن أصبحت لديه القدرة على ذلك هو الذي يكتشف .. للأسف اليوم في هذا الدَّور التاريخي الذي نَمُرُّ به والمرحلة التاريخية ، تمكن غير المسلمين وتمكن الغربيون وكذلك غيرهم من الشرقيين أن يشاهدوا هذه الآيات التي تحدثُ .. والتي جاءت في كتاب الله تعالى تُحدثنا عن نفس الموضوعات التي شاهدها القومُ .. فهم شاهدوا ونحن سمعنا ، ولكن هذا بسبب مستوانا الحضاري، ولو كانت لدينا أدوات الرؤية وأدوات المشاهدة لاكتشفناها نحن أيضاً.

ثم يتابع الزنداني قائلاً : إن البروفيسور (كيمفور) وجِّه لهُ نفس السؤال وهو من أشهر علماء العالم في الأجنة وكتابه يدرس في ثمان دول .. مرجع علمي بثمان لغات ، قالوا له : كيف ولماذا أنتم الذي تكتشفون هذه الحقائق دون المسلمين ؟ فقال : لعل هذا أبلغ في إظهار المعجزة القرآنية ، فلو أن المسلمين هم الذين اكتشفوا هذا لاتهموا بالانحياز إلى الإسلام . فلعل هذا أبلغ في إظهار الإسلام .

المراجع المساعدة

١ . موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، يوسف الحاج محمد ، مكتبة ابن حجر ، دمشق .

٢ . الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، د. عبد الله المصلح وآخرون ، رابطة العالم الإسلامي ، هيئة الإعجاز العلمي ، مكة المكرمة .

٣ . الإعجاز التشريعي والعلمي في آيات الطعام والشراب ، كريمة يوسف أبو شام ، دار عمار ، عمّان .

٤ . بينات الرسول ﷺ ، للشيخ عبد المجيد الزنداني .

٥ . حركة الأرض ودورانها ، محمد علي الصابوني ، دار القلم ، دمشق .

٦ . آيات الله في البحار ، ماهر أحمد صوفي ، دار البيان .

٧ . إعجاز القرآن في خلق الإنسان ، د. محمد كمال عبد العزيز ، جامعة الأزهر .

٨ . النحلة تسبح الله ، محمد حسن الحمصي ، دار الرشد ، دمشق .

٩ . الإسلام والحقائق العلمية ، محمود قاسم ، دار الهجرة ، مصر .

١٠ . مع الله في السماء ، أحمد زكي ، القاهرة .

١١ . الله يتجلى في عصر العلم ، ترجمة الدمرداش سرحان.

١٢ . دراسات في الكتب المقدسة ، موريس بوكاي.

١٣ . العلم يدعو للإيمان ، لمريسيون تقديم حسن الباقوري .

١٤ . قصة الإيمان ، نديم الجسر .

١٥ . روح الدين الإسلامي ، عفيف عبد الفتاح طبارة .

١٦ . الله جل جلاله ، سعيد حوى .

١٧ . عجائب القرآن في حواس الإنسان ، محمد كمال .
١٨ . بين الدين والعلم ، عبد الرزاق نوفل .
١٩ . القرآن والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل .

المبحث الخامس

العلاقة بين العلم والإيمان في الإسلام

منذ أن ظهر الإنسان على شاشة الكون خليفة في الأرض ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] وثمة مصباحان منحتهما له العناية الإلهية ، الوحي (الدين) والعقل (العلم) ، وبهما معاً بدأ مسيرته ورحلته على هذا الكوكب الأرضي . وهذا التصور يختلف عن كثير من التصورات التي يدعيها المتخصصون في الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية (علم الإنسان والاجتماع ودراسة الحضارات والتراث الثقافي) التي تزعم أن الدين نبع من الأرض ولم ينزل من السماء ، وترى أن الإنسان متطور في شكله وعقله ، وبجهل الإنسان ببدايته ونهايته، وصدق العظيم حيث يقول : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١] .

فالإنسان في التصور الإسلامي لم يخلق صدفة ولا بالتطور ، ولكن خلق كاملاً في شكله وعقله ، قال ﷺ : ((إن الله خلق آدم على صورته)) ولم يبدأ من فراغ ، ولم يترك حيران للظنون والأوهام في معرفة الخالق العظيم ، بل خلق عاقلاً مفطوراً على التوحيد والسلامة ، وفي الحديث القدسي : ((إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ..)) .

فالإنسان نزل وهبط على هذه الأرض ومعه النور والهداية مزوداً بالقدرات ووسائل الإدراك التي تمكنه من معرفة الله وعبادته ، والقيام بواجبات الاستخلاف المطلوبة في الأرض وعمارة الحياة وصلاحها والقيام بأعباء التمكين والتسخير على هذا الكون .

فالعلم والإيمان والدين بدأ مع آدم أبي البشر كما تجمع على ذلـك كـل الكتـب السـماوية المقدسة وأسفار التكوين غير المحرفة التي هي المصدر الوحيد للتأريخ لهذه الفترة المبكـرة مـن حياة البشرية .

وإنه لمن باب العقوق والغـرور والتنكـر أن تقـرر بعـض الدراسـات الماديـة أن العلـم والتعقل والإدراك ظواهر متأخرة في حياة الإنسان ، وأن البشرية عاشت قبـل ذلـك عشرـات الألوف من السنين في ضياع دون أن تكون مهتدية بميزان أو منهج تفكر بمقتضاه .

إن هذه الجرأة في الحكم على مراحل تاريخية طويلة وحضارات بعيـدة في الـزمن ليسـت من العلم ، بل هي ضرب من العمى والجهالة . فالعلم والإيمان والدين اصطحبا الإنسان منذ رأى مشرق الشمس ومغربها ، فكان يتحرك بمصباحين معاً ، مصباح العقل ومصباح الـدين ولم توجد حقبة في التاريخ خلت فيها الأرض من الدين والرسل ، قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[الحديد: ٢٥] .

تعريف العلم من حيث علاقته بالإيمان :

يمكن تعريف العلم من حيث علاقتـه بـالإيمان والـدين في التصـور الإسـلامي بأنـه : ((محاولة بشرية لفهم الكون ورصد حقائقه ومحاولة استيعابها عـن طريـق مختلـف القـدرات الذهنية والحسية ، والاستقراء للسنن والقوانين الكونية الثابتة والظواهر المتكررة)) .

وهو بذلك عملية متنامية للوصول إلى الحقيقة المطلقة التي منتهاهـا قـول الحـق تبـارك وتعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] ، فليس هناك قوة كالعلم تكشف عن توافق الحقائق الكونية مع الحقائق القرآنية ، فالعلم يدعو للإيمان في التصـور الإسـلامي ويعمقـه في النفوس ، قـال تعـالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٧] ، وكم من آية معجزة في كتاب الله المنظور نطقت بها آيات كتاب الله المسطور .

إن هذه العلاقة وهذا الارتباط بين العلم والإيمان في الإسلام يؤكد أنه لا صراع بينهما وأن دين الإسلام رشيد للعقول وتبصرة للقلوب وأن العلم جزء من كليات هذا الدين ، وأن الدين والعلم توأمان يؤكد كل منهما الآخر ويعززه في صحبة مستمرة وألفة دائمة .

والذي يتأمل القرآن الكريم يجد مساحات كبيرة من آي الذكر الحكيم تتحدث عن علوم الكون ، وقد استقرأ بعض العلماء آيات القرآن فأحصى خمساً وسبعمائة آية موضوعها تجريبي .. تتحدث عن السماء ، والأرض والنبات ، والحيوان ، والنحل ، واللبن ، والشمس ، والقمر ، والماء ، والبخار ، والهواء ، والسحاب ، والمطر ، والرياح .. إلى غير ذلك مما يطول سرده .

ومما يذكر هنا أن كثيراً من هذه الآيات التي موضوعها تجريبي يبدؤها الحق عزّ وجل بأمر صريح للإنسان بالنظر والتفكر فيها ، أو يختمها بهذا التوجيه الكريم إلى النظر ، وفي كثير من الآيات يبدؤها الله تعالى ويختمها بهذا الإلزام والطالب والسؤال والحث . والشواهد على ذلك من نصوص الكتاب الكريم يصعب حصرها ، ويكفي القارئ أن يراجع في المصحف الآيات الكريمة في مواد التفكر والعلم والتدبّر والبصر ، والتفقه ، والتذكر ، والتعقل ، ليدرك مدى إلزام الحق عز وجل للإنسان بذلك .

بل إن سور القرآن تتوالى حاملة أسماءً وكأنها تعرض شاشة الكون كله لتكون مجالاً للبحث ويطلق الحق عليها ويسميها بأسماء (ظواهر تجريبية أو حوادث كونية) مثل : الرعد ، الدخان ، النجم ، القمر ، الفجر ، التكوير ، المعارج ، الانفطار ، الليل ، الضحى ، الزلزلة ، النور ، الحديد ، الأنعام ، النحل ، النمل ، العنكبوت ، العاديات ، الفيل ، الفلق ، الطور ،

البروج ، القمر ، الشمس ، التين ، العلق ، الطارق .. وغيرها مما يمت بصلة إلى مظاهر الكون وآفاقه المختلفة . ولقد افتتح الله تعالى بعض سور القرآن الكريم بالقسم ، يقسم في سورة واحدة منها بالملائكة : هي سورة الصافات ، أما بقية هذه السور فيقسم الحق تبارك وتعالى فيها بمخلوقات موضوعها تجريبي مثل الأفلاك ، كما في البروج والطارق ، وبلوازم الأفلاك في : النجم ، الفجر ، الشمس ، الليل ، والضحى ، والعصر ، وسورتان بالهواء : الذاريات والمرسلات ، وسورة بالتربة : والطور ، وسورة بالنبات : والتين ، وسورة بالإنسان : والنازعات ، وسورة بالحيوان : والعاديات . ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه إليهما بالقلوب تتملاها ، وتتدبر ماذا لها من قيمة ، وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

العلم الوهبي والعلم الكسبي :

أولاً : العلم الوهبي : هو العلم الذي وهبه الله لأبينا آدم ، بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ولا جهد ، وقد وصفه الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣١] ، ويفسر العلماء تعبير (الأسماء كلها) بأنها أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات من الكائنات حسية أو جمادات وإلهام آدم عليه السلام معرفة ذواتها وصفاتها ونعوتها وخواصها. وبالطبع علم آدم ذريته وبنيه ما تعلمه من علم الله تعالى ، وورث بنوه العلم جيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة ، لأن القدرة على التعلم واكتساب المعرفة ميزة أساسية في الإنسان وضرورة من ضرورات وجوده .

فسبيل العلم الوهبي الوحي الصادق ، وهو العلم الذي اختص به الوحي والأنبياء وجاءت به الرسالات ، وهو في نفس الوقت ناشئ عن دليل نقلي وعقلي ومنطق سليم .

ولهذا عرف علماء الإسلام العلم بصفة عامة فقالوا : هـو إدراك جـازم مطـابق للواقـع ناشئ عن دليل . ولكن أصحاب المذاهب المادية يقصرون لفظة العلم على دراسة كل مـا هـو مدرك أو محسوس، ويقصدون به فهم حقيقة الأشياء بالـدلائل الحسـية ، ولهـذا فـإن الإتجـاه السائد في تعريف العلم في التصورات الوضعية يعنـي : مجموعـة المعـارف الإنسـانية المؤيـدة بالدلائل الحسية .

وهذا خلط في المفاهيم ، لأن المعارف إذا كانت إنسانية فمصدرها المنطـق التجريبـي أو الرياضي ، كما في علوم الطبيعة ، أما إذا كانت المعارف متصلة بـما وراء المـادة والغيبيـات ومـا يقصر المنطق التجريبي والرياضي عن معرفته فإن الوحي الصادق هو سبيلها ، معرفـة درجـة الحرارة تحتاج إلى ميزان معين ومعرفة وزن ما في الوعاء من بضاعة تحتاج إلى ميزان معين .

ثانياً : العلم الكسبي :

هو العلم المؤسس على النظر والاستنتاج والاستقراء والتجربة .

وقد أوكل الله تعالى الناس فيه إلى ما وهبهم من نعمة القدرات العقلية ووسائل الإدراك على اكتسابه ، وحثهم على طلبه ، وللقرآن والسـنة مـنهج متكامـل في الحـديث عـن وسـائل الإدراك وتفعيلها وتوظيفها توظيفاً علمياً ومنهجياً لذلك ، وجعل من عالم الشـهادة مسرـحاً عملياً وميداناً لتعمل فيها هذه الوسائل ، بينما ظل العلم الكسبي وعالم الغيـب يتطلـب يقينـاً قوياً مبنياً على الإيمان .

وقد أكد الرسول ﷺ أن طريق الوصول إلى العلم الكسبي هو العقل والتجربة بقولـه : ((إن الله خلق لكل داء دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله)) ، وقال في مقام تأبير النخـل: ((أنتم أعلم بشؤون دنياكم)) وقال في حديث آخر : ((إن الشمس والقمر آيتان مـن آيـات الله لا ينخسفان لموت أحد ...)) .

وعمارة الأرض والتمكين فيها مرهون دوماً بالعلم الوهبي والعلـم الكسـبي ، وبتعبـير آخر : الأخذ بالسنن الهادية والسنن البانية .

قنوت الأشياء لله وإسلامها له سبحانه وتعالى

جاء في الذكر الحكيم عن قنوت الأشياء لله عز وجل وإسلامها وسجودها وتسبيحها له آيات كثيرة نذكر منها : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦] ، وقوله تعالى في إسلامها : ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣] وقال تعالى في السجود : ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُۤ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥] ، وأما التسبيح فقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

والقنوت في اللغة : دوام الطاعة ، والمصلي إذا أطال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله، قال تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩] ، قال الزجاج : القنوت في اللغة القيام والطاعة ، والقيام يعني المثول والشخوص . والاقتران بالعبودية والطاعة تكون تارة بلسان الحال وتارة بلسان المقال . فإن قيل كيف عمم في الآيات السابقة القول بقنوت الأشياء وتسبيحها لله وكثير من الخلق ليس له بمطيع ؟

وللإجابة نقول إن الآيات ظاهرها العموم ومعناها الخصوص ، والمعني كل أهل الطاعات له قانتون ، والثاني أن كل مخلوق قانت لله تعالى بأثر صنعته فيه وجري أحكام الله عليه ، فالكفار تسجد ظلالها لله بالغدو والآصال والعشيات ، فنسب الله القنوت إليهم بذلك ، شاؤوا أم أبوا ، وفي هذا إخبار عما فطروا عليه من الإقرار بأن الله ربهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ، فهذه الآية بينة في إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة التي فُطروا عليها

أن الله ربهم ، وقال ﷺ : ((كل مولود يولد على الفطرة)) [1] ، فالإقرار بالخالق أمر فطري ضروري في جبلات الناس ، ولكن من الناس من فسدت فطرته فاحتاج إلى دواء ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] ، وأكثر الناس غافلون عما فطروا عليه من السلامة والطبع والخير ، إذ الأصل في النفس السلامة، والانحراف طارئ على الإنسان بسبب العوادي واغتيال الشياطين ، ولهذا تصف الرسل بأنهم يذكرون ، ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصره ، قال تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨] .

ولهذا فإن فقه الإيمان بمعرفة الله تعالى وتوحيده هو الفقه الأكبر، كما قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ، ومعرفة النفس ما لها وما عليها من حقوق وواجبات تجاه الخالق العزيز هو الفقه الأكبر أيضاً . والانشغال بهذا المقصد بمعناه الشامل من معالي الأمور وأغلى مقاصد الإسلام ، لأن توحيد الله والثقة به واليقين على موعوده والرغبة فيما عنده وتعظيم أوامره أول غايات العلم والدين ، لأن العلم علمان علم المقاصد والغايات وعلم الوسائل والأدوات وكلاهما يخدم بعضه البعض في الأهداف والوظائف .

---

١ . متفق عليه .

إن من فضل الله علينا أن جعل هـذا الكـون مصـدراً كبـيراً يمـدنا بالسـنن ، ومِفْتاحـاً للتحليل والتجريب ، وموضوعاً للتفكير والتأمـل ، وميـداناً خـيراً لفاعليـة الإنسـان ومجـالاً لقدراته ، التي يكشف بها عن قوانينه وأسراره ومعادلاته ومسخراته .

وإن من حكمة الله وتفضله علينا أن سخر لنا الكون ، وهيـأه التهيئـة الصـالحة وجعلـه مناسباً لقدرات الإنسان ومستجيباً لمطامحه وأهدافه ، وشـكَّله وفـق صـيغ ومعـادلات تُمّكـن الإنسان من أداء دوره الحضاري ، والقيام بأعبـاء الاسـتخلاف المطلـوب ، ولم يجعلـه مقفـلاً مسدوداً ، أو على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعيـة والانغـلاق والغمـوض التـي يعجـز الإنسان معها عن الإبداع والإعمار .

ولم يشأ سبحانه وتعالى أن يمهد الكـون تمهيـداً كـاملاً ، ويكشـف الإنسـان عـن سـننه وقوانينـه ونظمـه وأسراره ، لأن ذلـك يكـل الإنسـان إلى السـلبية ، كـما أنـه نقـيض عمليـة الاستخلاف والابتلاء والمسؤولية التي تتطلب عملاً وجهداً ونشاطاً أو كدحاً وسعياً وحركة.

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولًا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] وقال سبحانه : ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحـل: ٥ – ٧] ، وقـال تعـالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِىَ فِى ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ – ٣٤] .

ولكن هذا الكون المسخّر المطيع لا يخدم الإنسان إلاّ إذا فهم الإنسان كيف يتعامل معه وفق قوانين تسخيره ، وإلاّ ظل معرضاً صامتاً أمامه ، فكما يستعصي القفل أن يفتح بغير مفتاحه ، كذلك الكون لا يستجيب بغير معرفة قوانينه ، مثله في ذلك مثل الآلة التي لا تتحرك للإنسان الذي يجهل قانون تحريكها . فحتى يتمكن الإنسان من أقصى درجات الانتفاع من هذا الكون فلا بد من الوقوف على السنن التي تحكم قوانين تسخيره خصوصاً إذا علمنا كما ذكرت أنه لا يتعامل مع كون مشتت منغلق وإنما مع كون يتصف بالحركة والانتظام والانسجام والتوزان والاضطراد .

فالزرع مثلاً يزداد عطاؤه بمعرفة قوانين زراعته وتحسينه ، والحيوان يزداد إنتاجه بمعرفة قوانين رعايته وتدجينه ، وهكذا فإن عمارة الأرض تزداد بازدياد معرفتنا بالسنن الربانية واكتشافنا لقوانين التسخير واستخدم هذه القوانين في مختلف التطبيقات العملية والمجالات النافعة ، وأن الأمم التي لا تستفيد من مقررات هذا الكون ومسخراته أمم غافلة شقيّة مستضعفة مسجونة في جهلها ، مستعبدة لغيرها ، وهي لا تدري لماذا جاءت إلى الدنيا ولماذا تخرج منها .

المبحث السادس
دور الكتاب والسنة في بناء الفكر العلمي

كان ظهور الإسلام نقطة تحول حاسمة في تاريخ الفكر والدين والحضارة ، وبداية فتح فكري جديد، فقد غير من مفهومات الناس وأفكارهم ومثلهم وتطلعاتهم ، وأمدهم بالبصائر والبينات ، ونوّر عليهم عقولهم بالعلم ، وهدى قلوبهم بالإيمان وألف بينها على الحق، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ ، ١٦] ، ووضع لهم التصور الصحيح عن الحياة والوجود ، بطريقة منسقة لا خلل فيها ولا فجوات ، ورسم لهم منهج تفكير أصيل ، تربوا من خلاله على أصول التفكير السليم والاستدلال المثمر .

فقضى بهذا المنهج على كل الخرافات والجهالات التي كانت تحنط العقول وتلف الناس في أكفان الجهل عبر القرون الخالية .. ووجه الأنظار إلى التدبر في دلائل الهدى ونواميس الكون، ودعاهم إلى التأمل في الأنفس والآفاق .

وفي ظل هذا المنهج أقيمت الحضارات واكتشفت القوانين ، ونهضت حركة الفكر إلى أعلى ما يمكن أن يتصوره العقل من درجات العلم والبحث والتجريب .

ونحن لو تأملنا فيما قدمه الإسلام من ثمرات علمية ومعطيات فكرية وإنجازات حضارية ، لرأينا أنها ترتكز في حقيقة الأمر على القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وذلك بما أحدثاه من نقلات فكرية ومعرفية وحضارية ومنهجية وما هيّآه من مناخ علمي جديد .

والسؤال الآن ، كيف كان القرآن والسنة من حيث الواقع ومن حيث التفصيل باعثاً للفكر وموجها للعقل ؟ وما الأسس المنهجية للفكر الإسلامي التي تمخضت عنها النقلات الكبيرة التي أحدثها القرآن والسنة في الرؤية العلمية الإسلامية الجديدة ؟

لكي نجيب عن هذا السؤال ينبغي علينا أن نتدبر آيات القرآن الكريم ، ونتأمل هدي السنة المطهرة لنتعرف على توجيهها ودورهما الذي كان حافزاً في بنا الفكر العلمي وتكوينه الجديد ، ودافعاً في تكامل منهجه نحو العطاء والإبداع وذلك في النقاط التالية :

أ . منزلة العلم والعلماء في القرآن والسنة :

لقد كانت الخطوة الأولى التي شيدها الإسلام في بناء الفكر ، أنه أولى العلم والعلماء عناية كبرى ، فقد نزلت أولى آيات القرآن تكريماً للعلم ، وتعظيماً لوسائله وأدواته ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ – ٥] .

فكانت هذه الآيات أول انطلاقة حاسمة لإنهاء عهد الأمية البشرية ، وبدء عهد التعليم الناضج الذي يستخدم الملكات والطاقات كافة .

ولقد كانت هذه الافتتاحية التي أنزلت على خاتم المرسلين إيذاناً بنقلة الدنيا إلى عالم الأفكار والعلم ، والانتقال بالبشرية إلى الرقي الحضاري والنهوض من وهدة الجهل والتخلف التي كانت قابعة تحت كلاكلها [١] .

ولقد كانت العناية بالعلم جزءاً لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها القرآن الكريم ، حيث جعله أساس الإيمان ، قال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] ، وفي القرآن آيات كثيرة تعظم العلم وتشير إلى درجاته مقرونة بدرجات الإيمان ، قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ

١ . انظر : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، مالك بن نبي ص ٣٢ .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة: ١١] ، وبيّن القرآن أن إدراك معاني القرآن لا يتسنى إلاّ للعلماء ، وأن العلماء بما يصلون إليه من علم وتدبر وإيمان ، هم الأعظم إجلالاً له والأشد خشية من الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر: ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾[العنكبوت: ٤٩] . وقد جعل القرآن شهادة العلماء في أكبر مسائل الفكر ، وهي مسألة وجود الإله الواحد الحق ، جديرة بأن تقرن بشهادة الله لنفسه وشهادة الملائكة له ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾[آل عمران: ١٨] ، وقد جعل القرآن الكريم العلم من المسؤوليات الكبرى ، وجعل كتمانه إنما يستوجب المؤاخذة والعقاب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[البقرة: ١٥٩] ، وفي القرآن نصوص كثيرة تبين رفعة العلم ، ومكانة أهله لا يتسع المجال لحصرها [١] ، ويكفينا من العقد ما حاط بالرقبة .

وفي السنة النبوية فيض عظيم في الحديث على العلم أيضاً ، وهي زاخرة بالنصوص التي تأمر به وتحض عليه ، وتعلي من قدره ومكانة أهله ، فقد جعله الرسول ﷺ بمثابة النور الذي يهدي به الناس ، وينير لهم السبيل قال ﷺ : ((إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم الذي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أو شك أن تضل الهداة)) [٢]، كما

١ . إن تمجيد القرآن للعلم وضخامة هذه المادة في القرآن كبيرة جداً بحيث أنها وردت هي واشتقاقاتها نحو (٨٨٠) مرة : يرجع الى الصفحات ٤٦٩-٤٨١ من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (علم) .

٢ . رواه أحمد بن أنس .

جعله الرسول ﷺ فريضة تؤدي كما تؤدى الصلاة والصيام والزكاة ، فقال ﷺ : ((طلب العلم فريضة على كل مسلم)) [1] .

ولم تقف السنة عند هذا وإنما رفع رسول الله ﷺ أهل العلم إلى غاية الكرامة والشرف ، وجعل العلم أفضل القربات إلى الله ، وأحسن ما يثاب عليه الإنسان ، قال ﷺ : ((تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، به يعرف الله ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ..)) [2] إلى آخر ما هو معروف من حديث معاذ رضي الله عنه .

ويرشد الرسول ﷺ إلى أن العلم حق لكل البشر وكتمانه فيه فساد وإثم كبير ((من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)) [3] ، وقد شجع الرسول ﷺ على محبة العلم والتعلم فقال : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة)) [4] .

ورفع ﷺ منزلة العلماء فقال : ((يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة)) [5] .

ولقد وصل اهتمام الرسول ﷺ بالعلم إلى أنه فضله على مجالس الذكر (حين دخل في المسجد فرأى مجلسين ، فقال : أما الأولون فيسألون الله تعالى إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما الآخرون يعلمون الناس وإنما بعثت معلماً) . وكان ﷺ يمنح الأوسمة والدرجات العلمية للمتفوقين في العلوم ويكرم الممتازين من المتعلمين رجالاً ونساء ، فها هو يمنح معاذ

---

١ . رواه ابن ماجه ج ١ ص ٨١ رقم ٢٢٤ ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله .

٢ . رواه ابن عبد البر عن معاذ وانظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ٥٨ .

٣ . رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن .

٤ . رواه مسلم .

٥ . رواه ابن عبد البر في فضل العلم كما في المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٣٧٧ .

بن جبل درجة الامتياز في الفقه حيث يقول : (أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل)[1] ، ويمنح زيد بن ثابت درجة الامتياز في علم المواريث حيث يقول : (أفرضكم زيد بن ثابت)[2] ويمنح أبا عبيدة عامر بن الجراح درجة الامتياز في علم القضاء فيقول : (أقضاكم أبو عبيدة)[3] .

ولقد وردت أخبار وآثار عن سلف الأمة وأئمتها في فضل العلم وأهميته ومكانة أهله ، وقد تحدث كثير من العلماء عن طرق تحصيله واكتسابه وبيان آدابه وشروطه ومجالسه ، وللمسلمين في هذا الباب ذخائر[4] لا تعد ولا تحصى لا يتسع المجال لذكرها .

وليس من شك في أن تلك الدعوة العلمية كانت السبب الأول في خلق حركة فكرية وحياة علمية في تاريخ الإسلام ، وهي السبب الأول الذي دفع العقول نحو الحضارة والازدهار .

ب . تحرير الفكر البشري من الخرافات :

---

١ . رواه ابن ماجه .

٢ . رواه ابن ماجه .

٣. رواه ابن ماجه .

٤ . انظر على سبيل المثال : مفتاح دار السعادة لابن القيم .

الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي .

جامع بيان العلم وفصله لابن عبد البر .

تعليم المتعلم لإبراهيم الدين الزنوجي .

بهجة النفوس لابن أبي حمزة .

أدب الدنيا والدين للماوردي .

من الخطوات التي ساعدت في بناء الفكر . أن الإسلام حرره من الخرافات والتصورات الضالة . ومعروف أن القرآن الكريم نزل والمجتمعات البشرية تعج بالخرافات والأوهام ، وكانت كثير من العادات الجاهلية والتقاليد العمياء تأسر عقولهم وأفكارهم ، تحجبها عن التفكير السليم ، وكانت كثير من المعتقدات الزائفة من كهانة وعرافة وشعوذة وسحر تتحكم في كثير من الناس ، وكانت الأصنام والتماثيل والأوثان تملأ بيوتهم ، وكانوا بها يستسقون وبها يستنصرون وعندها يذبحون وإليها يتقربون [1] .

فلما نزل القرآن الكريم أنار العقول ، وأبطل تلك التصورات الضالة ، وحرر الناس من أسر الخرافات التي تردَّت فيها البشرية ردحاً من الزمن ، ورفع عنهم العوائق التي تعيقهم عن ممارسة الفهم الصحيح والتفكير المستبين ، وكانت أولى مهام النبي ﷺ أن ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] . ووقف الرسول ﷺ بحزم وشدة في وجه كل الجهالات ، وحارب الجمود والتقليد الأعمى ، وضيق النظر الذي يغلق منافذ التفكير ويقيد العقل ولا يسمح لصاحبه بالتجرد في طلب الحق والإيمان .

وحارب ﷺ كثيراً من الخرافات مثل الكهانة والعرافة والسحر والتنجيم ، فأعلن أن (لا عدوة ولا طيرة ولا هامة ولا صفر) [2] .

---

١. لمزيد من التفصيل انظر كتاب (الأصنام) : هشام بن محمد السائب الكلبي ، تحقيق أحمد زكي ط ٢ مطبعة دار الكتاب المصرية القاهرة ١٩٢٤ م ، ص ٥٥ .

٢. الطيرة : التشاؤم بالطير ، الهامة : البوم ، صفر : الشهر المعروف بعد المحرم ، كان العرب يتصورون أن من وقعت البوم على داره فإنها تنذر بموت أحد أفراد العائلة ، أو أن أرواح المقتول تخرج من القبر وتصيح مطالبة بأخذ الثأر من القاتل ، قال ذو الأصبع العدواني :

يا عمر إلا تدع شتمي ومنقصتي   أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وبين (أن الرقى والتمائم والتولة شرك)[1] . واعتبر ﷺ السحر من الموبقات السبع المهلكات في الدنيا والآخرة ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هي ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات))[2] .

ونعى القرآن على الذين يتعلمون السحر من هاروت وماروت ، وقد نبه الرسول أيضاً على أنه : ((من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل صلاته أربعين ليلة))[3] ، وأكد ذلك مرة أخرى فقال : ((من أتى عرافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنْزِلَ على محمد من ربه))[4] .

وهذا باب واسع وعماد عظيم في بناء الفكر الإسلامي الذي يقوم على التوحيد بشعبه الثلاث[5] ، وهذه أمثلة للاستشهاد أردت أن أبين فيها كيف حدد الإسلام التفكير ، ومنح

وكذلك كانوا يعتقدون بشؤم الغراب حتى سمو غراب البين (الفراق) لأنه في ظنهم ينذر بافتراق الشمل والبعد عن الأهل والأصحاب والأحباب ، قال النابغة :

= زعم البوارح أن رحلتنا غدا ... وبذلك خبرنا الغراب الأسود

كما كانوا يعتقدون أن شهر صفر شهر دماء وقتل وموت فبين الرسول أنه كسائر الشهور . والحديث رواه مسلم ٤/ ١٧٤٣ ، باب لا عدوة ولا طيرة .

١ . رواه أبو داود في كتاب الطب .

٢ . رواه مسلم .

٣ . رواه مسلم .

٤ . حديث صحيح وهو على شرط البخاري .

٥ . لمزيد من التفاصيل انظر كتاب قرة عيون الموحدين ، وتيسير العزيز الحميد .

العقل التجرد ، وأطلقه من أسر المعتقدات الضالة ، التي سدت عليه منافذ الهدى وحجبت عنه ضياء الحق وصرفته عن المحجة البيضاء .

جـ . توجيه العقول لمعرفة آفاق الكون :

وجاء القرآن الكريم ليقرر بأن الإنسان مطالب بالنظر والتفكير في جنبات هذا الكون والبحث عن آيات الله فيه ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ... ﴾ [ق: ٦ – ٧] . ومن الواضح أن القرآن بما اشتمل عليه من تنبيه إلى آيات الكون ووضع أمام الإنسان مهمة (الاستقراء الواسع) وحدّد لبداية التفكير واهتمامه ، نقطتين رئيستين هما : السماوات والأرض ، والإنسان نفسه قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[العنكبوت: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢١] .

وكثيراً ما نجد القرآن يتحدث عن البدايات التي يدور حولها التفكير من جبال وأنهار وإبل وسماء وأرض وحياة وموت وغير ذلك من هذه الموضوعات الغزيرة .

فالقرآن الكريم حين يتحدث عنها إنما يريد من الفكر أن يدرسها وينظر إليها نظرة جديدة ، فيها روح جديدة واستبطار مدرك – ذلك لأن الأشياء المألوفة والعادية ، كثيراً من نغفل عن طبيعتها ، وفهم قوانينها وحكمتها والغاية منها – وأن يربط بينها برباط منطقي تتحقق فيه الرؤية التركيبية والنسق التام بين نظام الخلق المعجز وبين الصانع القدير .

ولا شك أن الكشف عن هذه النظرة ، والأخذ بشروطها المنهجية يعتبر كسباً كبيراً للعقل البشري ، وإضافة قيمة لقدراته في الوصول إلى الاعتقاد الراسخ ، وتربية له على إدراك الحق على الوجه الصحيح ، ويعتبر القرآن الكريم أول من أصّل هذه النظرة وأول من وجه الفكر نحو الجمع بين النظرة الكلية التراكمية وبين النظرة الجزئية التحليلية ، وبهما تتوافر للفكر النظرة العلمية الصحيحة التي تؤخذ من القرآن الكريم .

د . إدراك قوانين الله وحكمته في الحياة :

وقد نبه القرآن الفكر إلى جوانب علمية شتى فيما يتعلق بهذا الكون وأكثر من الإشارة إليها لكي يجعلها العلماء موضع اهتمامهم فمن ذلك :

١ . تشير آيات كثير في القرآن إلى وجود القانون والحكمة والغاية والاضطراد في نظام هذا الكون وهذا ما تدل عليه كلمة (بالحق) التي ترد كثيراً في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الروم: ٨] . وهذه الكلمة (بالحق) تحتاج إلى استقراء لاستجلاء كل ما تشير إليه .

ولو لم يكن هذا الكون قائماً على الحق ، وقائماً على حقائق علمية ثابتة ودقيقة مقننة تحكمها قوانين مطردة قابلة للكشف وقابلة للظهور بظواهر علمية يستطيع العقل أن يدركها ويفهمها ، ما استطاع الإنسان أن يستشف من هذا الكون شيئاً على الإطلاق .

فكل شيء في هذا الكون خلق بالحق ، ونظم تنظيماً دقيقاً ، وكل ما يكتشف من أسرار هذا الكون ، إنما هو اهتداء إلى قوانين الله الحقة ، وكل طاقة علمية يهتدي إليها البشر ، إنما تقدم دليلاً على قدرة الله ، وتفتح نوراً للمؤمنين .

وكم من آية معجزة في كتاب الله المنظور ، نطقت بها آيات كتابه المسطور ؟! .

٢ . يوجه القرآن إلى قاعدة عريضة من القواعد التي ترد كثيراً في القرآن الكريم وهي مسألة تسخير العالم والكون للإنسان ، ففي آيات عديدة من كتاب الله المعجز نجد تأكيداً مستمراً على أن السماء والأرض وما في هذا الكون من أشياء بصفاتها وتركيبها الجغرافي والفيزيائي والكيماوي والحيوي وقد هيئت تهيئة خاصة ، وذلك لكي يمارس الإنسان دوره واستخلافه عليها وعمارته لها .

ولو لم تكن كذلك لما استطاع الإنسان بإمكان عقله وبإمكانات حسه أن يستثمر ما فيها، أو أن يصل إلى شيء من كشفه ، أو الاستفادة منه على الإطلاق . قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ

﴿ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] .

ولقد أراد الله من هذا التسخير أن يربي التفكير على التدبر في حكمته وعنايته لخلقه ، لتكون صلتنا بالله صلة اعتبار وإيمان وشكر وطاعة ، ولتكون صلتنا بهذا الكون صلة استثمار وتسخير وانتفاع في المعاش والعمران [١] .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ (٣٣) وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ – ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ٥ – ١٠] .

ولقد انعكست هذه النظرة – التي أصلها القرآن ووجه إليها ، ودعا إليها رسول الله ﷺ – على الفكر الإسلامي انعكاساً واضحاً .

وبهذه الصلة وبهذا الرابط اندفع المسلمون للاستفادة من قوانين هذا التسخير وعوامل هذا التدبير ، واستوعبوا بعض ما في هذا الكون من معارف وعلوم .

---

١ . راجع العقل مجالاته وآثاره في ضوء الإسلام ، عبد الرحمن الزنيدي ، رسالة ماجستير ١٤٠٢ هـ .

وبهذا التوجيه القرآني ولأغراضه عمَّر المسلمون الأرض واستثمروا ما في الكون وكشفوا ما فيه من حقائق علمية ، لأنهم يدركون أن ذلك سيساعدهم على اتباع سنة الله ويعينهم على الاستفادة من مخلوقاته على حسب رضاه سبحانه وتعالى .

وبهذا أوجدوا المناخ للابتكار والإبداع ، وغرسوا النواة الطاهرة للمعرفة وبحثوا عن العلم النافع ووجهوا ما في هذا الكون من قوانين لمصلحة العباد التي تقود إلى رضا الله عز وجل .

٣ . أشار القرآن إلى هيئة الأشياء وتركيبها وصفاتها وكيفية وقوع الظاهرات الكونية ، ومن مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾[الفرقان: ٤٥] ، وقال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم: ٥٠] وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦] . وفي كتاب الله المعجز أمثال كثيرة تضرب ، وهي ليست تعبيرات بلاغية فحسب بل هي أيضاً لغة جديدة في الكلام عن حقائق علمية أراد الله أن يقربها للإنسان لكي يفهم المراد . وتأتي في القرآن أيضاً أساليب أخرى من التعبير توجه النظر إلى أسرار هذا الكون وتسمع بكثير من الاستدلالات العلمية .مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩] ، وقوله تعالى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

ففي هذه الآيات دلالة علمية غير مباشرة على حركة الأرض حول نفسها ، وحث للفكر على استكشاف سر التفاوت في طول الليل والنهار بحسب فصول السنة . ولو ذهبنا نستكثر من أسرار آيات القرآن وإمكانات فهمه ، في حدود دلالة الألفاظ والعبارات والاستدلالات غير المباشرة لوجدنا أنفسنا أمام أنواع من الفهم والتأمل لا نهاية لها ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧] .

ولهذا يجب علينا أن نجتهد في دراسة ما ينبه القرآن الفكر إليه من آيات ولفتات علمية ، بما يمكن أن نصل إليه من علم جديد بالأشياء يتيح لنا أن نستخدمه في مصالح الحياة ، ولنعلم أن الله تعالى ما كان ليقسم لنا بمظاهر الكون والطبيعة لولا أن صُنعة فيها مملوء بالقوى والحكم والأسرار [1] فما أعظم إمكانات العلم لمن يضع آيات القرآن أمام عقله لكي يسترشد بها في معرفة قوانين هذا الكون وسنن الله فيه ، ولكن كثيراً من الناس عن آيات ربهم غافلون .

بهذا فتح القرآن مغاليق الآفاق أمام الفكر البشري ، وأخرجه من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ولولا هذا الحث من القرآن والسنة لضاعت طاقات الفكر في غثاء السبيل ولظلت حركة الفكر قابعة في ظلمات الأمية والضلال .

تحفظ :

على أنه إذا كان القرآن قد نبه إلى آيات هذا الكون وكان في بياته ما يمكن أن يكون أساساً أو سنداً لتصور علمي ، أو سبيلاً إلى حقيقة علمية [2] ، فإننا لا يصح أن نحول آيات الكتاب الحكيم إلى تصورات أو نظريات علمية ، وذلك لأن نظريات العلم تصورات مؤقتة ونسبية وقابلة للتغيير . ولأن فهم القرآن سيظل فهماً متجدداً ، وسيظل كل عصر يبلغ من العلم ما يستطيع أن يصل إلى جديد من القرآن ، ذلك لأن رسالة القرآن رسالة متجددة لكل عصر (ثابتة متجددة) .

والقرآن معجزة خالدة لا تنقضي عجائبة ، ولا يقف إعجازه عند عصر دون عصر

---

١ . بل إن سور القرآن تتوالى حاملة أسماء وكأنها تعرض شاشة الكون كله لتكون مجالاً للبحث .

انظر أسماء هذه السور : (الرعد ، النور ، الدخان ، النجم ، القمر ، الفجر ، المعارج ، التكوير ، الانفطار ، الليل ، الضحى ، الزلزلة ، وغيرها مما يمت بصلة إلى مظاهر الكون وآفاقه المختلفة .

٢ . الحقيقة العلمية قابلة للتجربة وثابتة في جميع الأحوال ، أما النظرية العلمية قائمة على الفروض وقابلة للتغيير والتبديل . انظر: لمحات في الثقافة الإسلامية عمر عودة الخطيب ص ٢٢٢ .

معين، ولا تحده ثقافة بالذات ، فهو أبقى وأثبت وأقوى من كل شيء مما سبقه مـن معجـزات حدها الزمان ، ثم انتهت بانتهاء زمانها واندثار معالم مكانها .

هـ توجيه الإسلام لتأسيس مناهج البحث :

وقد وجه الإسلام فكر الإنسان إلى المناهج العلمية المنظمة .

ونحن نعرف اليوم كم يـؤدي (المـنهج) مـن دور خطـير في حركـة الإنسـان الفكريـة والحضارية عموماً ، ونعرف أنه من غير (منهج) فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهـداف مهـما بذل من جهد وقدم عطاء .

فجوهر العلم إنما يكمن في مدى دقة المنهج وأحكامه سواء في تلك العلوم التجريبية أو العلوم الاجتماعية ، ولقد فتح الإسلام باب التفكير وحث على العلم وقدم المنهج .

ولنتلمّس أبعاد المنهجية الكبرى التي قدمها القرآن للفكـر البشرـي ، التـي امتـدت إلى معرفة التاريخ معرفة علمية ، وكشفت للعقل عن منهج البحث الحسي (التجريبي) فمكنتـه من الإبداع وأتاحت له النمو والتطور .

فلنقف قليلاً عند هذين المنهجين لندرك كيف فتحت آيات الله البينـات لتفكـير المسـلم رؤية جديدة في دراسة حركة التـاريخ ، وكيـف منحتـه النظـرة المنهجيـة المنظمـة في البحـث والملاحظة والتجربة والاستقراء والاستنباط .

١. المنهجية التاريخية:

((لأول مرة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشري عن حقيقة منهجية على درجة كبيرة من الخطورة : إن التاريخ البشري لا يتحرك فوضى وعلى غير هدف ، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء سواء بسواء)) [١] .

وتلك قضية لم يكن قد كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن الكريم .

---

١ . حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، د. عماد الدين خليل ص ٥١ طبعة قطر ١٤٠٣ هـ .

إن القرآن يقدم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، وينتقل بهذا التعامل من مرحلة السرد والتجميع فحسب إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية ، كما فعل ابن خلدون – فيما بعد على سبيل المثال – فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ ، الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلاّ بعد انقضاء خمسة قرون . ولقد وقع كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين في خطأ القول بأن (ابن خلدون) هو أول من ما رس هذا (المنهج) وأنه لا توجد قبله أية محاولة في هذا السبيل .

إنَّ القرآن الكريم هو أول من طرح على العقل البشري ولأول مرة مسألة السنن والنواميس التي تسيّر حركة التاريخ والتي تتجاوز نظرية البيئة الجغرافية ، والأجناس العرقية أو النظرية المادية الاقتصادية وغيرها من النظريات التي تفسر حركة التاريخ .

إنَّ نظرة الإسلام في تفسير التاريخ تنفي أن تكون حوادث التاريخ ومناشط المجتمع والحضارات خاضعة لضرروة أو مصادفة أو هوى ، بل تحكمها سنن وقيم ثابتة دائمة في كيان الإنسان ، وتخضع لقوانين أخلاقية ، وحكمة وغاية عظيمة [1] . ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا ﴾ [آل عمران: ١٩١] .

ولعل من المناسب أن نذكر – هنا – أن القرآن الكريم ليس كتاباً في علم التاريخ ، ولا كتاباً في الهندسة أو في العلوم الطبيعية ، وإنما هو كتاب هداية عامة للإنسان ، ومن هدايته توجيه الفكر البشري إلى معرفة التاريخ ، وسنن للمالتبي الله التي حركته .

لقد وجه القرآن العظيم فكر الإنسان إلى منهج واضح في هذه المعرفة وهو منهج الاستقراء لحوادث التاريخ وسلوك الأمم على مر الأزمان، واستخلاص النتائج والاعتبار بها.

١ . انظر : السنن التاريخية في القرآن الكريم ، محمد باقر الصدر ص ٧٥ .

وهذه إشارة إلى ملامح من هذا المنهج في بعض آيات الذكر الحكيم ، التي تدعونا إلى تنظيم الفكر في البحث والنظر والتأمل في حوادث التاريخ وتجارب الأمم، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ – ١٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يوسف: ١٠٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٦ – ٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥ – ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩] .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : ((يا معشر المهاجرين: خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها ، إلاّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلاّ أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة ، وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم ، إلاّ منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ، إلاّ سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخيروا مما أنزل الله إلاّ جعل الله بأسهم

بينهم)) [1] . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تحدثت عن منهج الله في سنن الكون والتاريخ ، ويستخلص من الآيات والأحاديث في هذا المجال : أن حركة التاريخ تخضع لسنن الله تعالى ولقوانينه الأخلاقية ، ويتعين لإدراك العبرة من هذه القوانين والسنن أن يستعمل الإنسان فكره وعقله وقلبه وحواسه ومشاهدته ، وأن يرحل في الأرض لتتاح له فرصة النظر في آثار الأمم والمدن التي كانت فيها ، وكيف كانت عاقبة ذلك كله ، وليعرف أسباب نشأة تلك الأمم وأسباب اندثارها واندراس قوتها وهلاك حضارتها . فأشارت الآيات وسائل المنهج وهي النظر والقلب والسمع والبصر والمشاهدة والسير أو الرحلة .

والغرض من ذلك كله ومعرفة العواقب والنتائج من تجارب تلك الأمم في مسالكها وتاريخها. ولا شك أن ربط سنن التاريخ بعناية الله وإضافتها إلى الله عز وجل، تربي التفكير على أن يرتبط بالله، فلا يظن أنه مستقل عن عناية الله وقدرته ، وفي هذا ربط بين العلم والإيمان.

كما أنها تربي الذهنية الإسلامية على التفكير العلمي ، والابتعاد عن التفكير الخرافي والأساطير ،وتجعله يتجه إلى فهم سنن الله فهماً علمياً واعياً يقوم على بط الأسباب بالمسببات والغايات .

وتبعاً لهذه النظرة التي أصلها القرآن، كان المسلمون أول من خطا أرقى الخطوات في مسيرة الحضارة والعلم ، وحسبنا أن نعلم أن جل أعمال ابن خلدون العلمية المثلة في مقدمة تاريخه (العبر) كانت ثمرة طبيعية للانتفاع القرآني بصرف النظر عما يضم هذا الكتاب من آراء .

---

١ . رواه ابن ماجه في باب العقوبات .

المناهج العلمية الأخرى :

إنَّ البراعم الأولى لسائر المناهج العلمية التي يدعى أنها حديثة مبتكرة ، لم تكن في الواقع مغفلة في البيان القرآني والتعليم النبوي الشريف ، كما أن أصول المناهج الحديثة التي جرت بها أقلام الباحثين في الشرق والغرب ، وهي التجريب والاستقراء والاستنباط والاسترداد ، لم تكن مجهولة لدى المسلمين [1] ويمكن أن نجدها بلا كلفة ولا عناء في القرآن والسنة النبوية المطهرة ، ولسنا ننزع في ذلك إلى إشباع الرغبة أو النعرة أو بخس حقوق الناس ، وإنما ننزع إلى إنصاف الحقيقة الوفاء بالمسؤولية العلمية والدينية ، دعماً لتأصيل ذاتنا ، وتغذية لثقة أجيالنا ، وحفزاً للهمم كي نواصل ما انقطع . ونسترد ما ضاع منا من ريادة علمية وحضارية هيأها لنا الإسلام ، وأضعناها في غمرة التضليل .

ولا يتسع المجال لعرض جميع الآيات والأحاديث التي تُقْبَس منها هذه المناهج ولكنني سوف أقتصر على كل منهج ببعض من الأمثلة .

المنهج الحسي (التجريبي) :

عرض القرآن الكون عرضاً حسياً واقعياً ، وأشار إلى وسائل البحث وطرقه كما تقدم، وذكرت أن القرآن والسنة حينما يعرضان حوادث الكون ، فإنهما يبعدانها عن الخرافات والأساطير ويربطان هذه الحوادث ربطاً موضوعياً علمياً بالمقدمات والنتائج والأسباب والمسببات . قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [الروم: ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣] .

---

١ . انظر د. عبد الرحمن بدوي مناهج البحث ص ٥، ٦ .

والدكتور محمود قاسم المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١٢١ .

لقد جاءت السنة لترشد إلى التعامل مع الطبيعة على أساس التجربة المستندة إلى الأسباب العلمية ، فعندما كسفت الشمس في اليوم الذي توفي فيه إبراهيم – ابن رسول الله– ظن الناس أن كسوف الشمس كان بسبب موت إبراهيم ، فوقف الرسول ﷺ أمام هذه المفهومات التي لا تقوم على أساس ولا تستند إلى علم فقال : ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا ينكسفان موت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة)) [1] ، وقد أكد الرسول ﷺ الاتجاه العلمي التجريبي حين قال : ((إن لك داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله تعالى)) [2] .

ومن الركائز العلمية التي أصّلها القرآن ووضع قواعدها الثابتة دعماً لمنهج البحث التجريبي :

١ . أنه ينشد العلم القائم على الدليل ، ويرفض كل مالا يقوم على المنطق أو تنهض به حجة ، كما يطالب كل ذي رأي بالبرهان عليه ، ويأمر باستعمال ملكات المعرفة الصحيحة واستعمال كل الحواس للوصول إلى الحقيقة ، ويقرر مسؤولية الإنسان عما يتبعه من آراء دون تمحيص لها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[البقرة: ١١١] ، فكل مالا يقوم عليه دليل ولا تقبله الحجة ولا يسنده برهان ، فهو علم مردود ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴾ [النجم: ٢٣] .

---

١ . أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء في صلاة الكسوف .

٢ . رواه مسلم .

٢ . ينعى القرآن على الذين يعطلون نوافذ حسهم وملكات إدراكهم التي منحهم الله إيّاها فيصفهم بأنهم كالجمادات ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩] .

٣. ربَّى القرآن الكريم التفكير على عدم التأثر بالمحيط الفاسد الذي يحول دون الحق والصواب والوصول إلى الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[الأنعام: ١١٦] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾[سبأ: ٤٦] . وقال ﷺ : ((ولا تكونوا إمعة : تقولون أن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا)) [١] . ولا شك أن هذه الدعوة إلى استخدام العقل والنظر والشهادة والسمع والتجريب والحجة والبرهان والدليل ، هي التي انتهت بالمسلمين إلى الاتجاه التجريبي العام وجعلت منهم آخر الأمر واضعي أساس العلم الحديث [٢] .

---

١ . رواه الترمذي .

٢ . انظر : تجديد التفكير الديني ، محمد إقبال ص ١٤٦ .

الاستقراء:

كثير من آيات القرآن توجه النظر إلى منهج الاستقراء (قل سيروا .. قل انظروا ..) ويكفي أن نشير إلى الآية الكريمة التي يحكي الله فيها عن بعض العرب تلك المقولة التي تصف الملائكة بالأنوثة ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾[الزخرف: ١٩] . فهذه الآية تعلمنا أن الحكم بالذكورة والأنوثة يقتضي المشاهدة والملاحظة الواعية ، وإلاّ لم يكن الحلم سليماً .

ثم أليست الملاحظة والمشاهدة هي نقطة الانطلاق في المنهج الاستقرائي الحديث ؟ أليست الملاحظات والتجارب هي ما قام به علماء المسلمين حتى صححوا نظريات السابقين وأضافوا إلى آرائهم وبحوثهم في كل مجال من مجالات العلم . إن كل دعوة في القرآن إلى تأمل الظواهر الطبيعية التي حولنا ودراستها والحكم عليها ، وتعلم الدروس منها ، هي دعوة في الواقع إلى منهج استقرائي يزيد على الوضع الحديث ولا ينقص .

يزيد عليه أنه يزيدنا شكراً للصانع العظيم يقول تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد: ٤] . أليست هذه الآية تحمل الناس على التأمل والدراسة واستنباط العبرة بعد التحفظ والتجربة والملاحظة والمشاهدة .

الاستنباط :

أما المنهج الاستنباطي فصوره مبثوثة بكثرة في كتاب الله يصعب حصرها ، فأغلب الاستدلالات على وجود وحدانية الله سبحانه استنباطية متدرجة تتخذ جميع الأساليب بما فيها ضرب المثل المحسوس المشاهد ، وفي هذا تحالف الاستقراء مع الاستنباط .

ولنتأمل وسيلة الإيضاح التي عرضها القرآن في قصة إبراهيم عليه السلام مع ظواهر

الكون والنجم والقمر والشمسى وصور الاستنباط فيها قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٥ – ٧٨] ، وفي هذا دليل لنا على تعلم النقاش الصحيح والاستنباط السليم . وفيها دليل على إفحام إبراهيم عليه السلام لقومه في نسق منطقي قوي.

ولنتأمل أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: ٧٨ – ٨٣] .

لقد ظفرت هذه الآيات من المفسرين وأفذاذ العقيدة بتعليقات ضافية وذلك بما جمعت من دلائل على قدرة الله في كل نطاق سواء كان الإيجاد من عدم أو الجمع بين المتضادين في الطبيعة أو البعث رمّ من العظام ، مما يغذي العقل والوجدان ، ويحمل على الإيمان وتحسين السلوك [١] .

والحقيقة أن تفاصيل الحركة الفكرية والعلمية التي دعا إليها الإسلام من خلال الكتاب والسنة في شتى العلوم والمجالات تستحق دراسة خاصة ، ذلك لأن مدار آيات الكتاب

١ . راجع التفسير الكبير لفخر الدين الرازي .

الحكيم تدور حول الحق بكل معانيه ، وحول العلم بكل موضوعاته ، وحـول التفكـير بكـل وسائله .

وبهذه الأبعاد الفكرية والتوجيهات العلمية التي فجر ينابيعها القرآن الكريم وأشـعلت طاقاتها السنة المطهرة ، أثمرت العقول المسلمة وهيأت للعقل المسـلم انطلاقتـه الفـذة ، التـي انتقلت بعد ذلك إلى أوروبا عن طريق الترجمات المختلفة ، التي بدأت في بواكير القـرن الثـاني عشر الميلادي ، فقدمت إليهم المنهج التجريبي الـذي عـن طريقـه اسـتطاع العـالم أن يـنهض ويكتشف كثيراً من عناصر هذا الكون وأن يتقدم تقدماً هائلاً في مجال العلم والاختراع .

ولئن أنكر أهل أوروبا تأثرهم أو نقلهـم للمـنهج التجريبـي طـوال القـرون السـابقة ، متأثرين بالروح الصليبية التي أشعلت نيران الانتقام من أهل الإسلام طوال قرنين من الزمـان ، فإن روحاً جديدة من الإنصاف بدأت تسري في عالمهم فعادوا بعد سبعة قرون يعترفون بـأن (روجربيكون) قد نقل هذا المنهج الإسلامي فـيما نقـل عـن معاهـد الأنـدلس. وأن (سـبيه فرانسيس بيكون) الذي جاء بعد (روجربيكون) [1] ، انتحل لنفسه هذا المنهج بعد قرنين من الزمان . وإن كانوا جميعاً قد حجبوه عن الروح الإسلامية ونسبوا الكشوف إلى الإنسان وحده . وتجاهلوا قانون الوحي .

يقول (بريفولت) أحد العلماء المعاصرين صـاحب كتـاب (صـناعة البشـرية) : (إن مناقشات عدة تقوم حول واضعي المنهج التجريبي ، وإن هذه المناقشات تعود في آخر الأمر إلى تصور فاسد محرف لمصـادر الحضـارة الأوروبيـة ، أمـا مصـدرها الحـق فهـو مـنهج العـرب التجريبي) . ويقول : (إن روجر بيكون درس العلم الإسلامي دراسة عميقة ، وأنه لا ينسب

---

١ . انظر : العلم في الإسلام ، أنور الجندي ص ١٣ -١٨ .

لنفسه أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي ، وما هو إلا رسول من رسل العلم والمنهج الإسلامي في أوروبا)[1] .

وتقول (زيغريد هونكه) مبينة دور الفكر الإسلامي وأصالته : (إن العرب [2] لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال ، ويقدموها إلى الغرب مرتبة منظمة وحسب ، بل أسسوا الطرق التجريبية في أنواع العلوم ، وقدموا اكتشافات كثيرة في فروع المعرفة ، وبالإضافة إلى هذا قدموا للغرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح ، التي مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة)[3] .

ويؤكد الدكتور (كوبلربونج) أستاذ العلاقات الأجنبية في جامعة برتستون (في واشنطن) قوله : (كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربي ، مدين بوجوده إلى الثقافة العربية الإسلامية ، كما وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة والذي أخذ به علماء أوروبا ، إنما كان نتاج اتصال العلماء الأوربيين بالعلم الإسلامي ، عن طريق دولة العرب في الأندلس)[4] .

والحقيقة أنه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوروبي لم يكن للفكر الإسلامي عليها تأثير أساسي ، وإن أهم تأثير للفكر الإسلامي هو تأثيره على العلم الطبيعي والروح العلمية وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث .

---

١ . انظر: محاضرات في تاريخ العلم لفؤاد سزكين ص ١٩ فقد ذكر أقوالاً كثيرة يوضح فيها هذه المسألة .

(٢) . يقصدون بذلك الإسلام .

(٣) . شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٠١-٤٠٢ ، د. زيغريد هونكه ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ط٣، ١٩٧٩ منشورات المكتب التجاري ، بيروت .

(٤) . نقلاً عن كتاب أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية لأحمد علي الملا ص ٩، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ، دار الفكر دمشق .

ولكن المشكلة اليوم أين نحن من هذا وذاك ؟

إننا اليوم بحاجة لهزة جديدة تقدح شرارة الإيمان والثقة في نفوسنا من أجل أن نتحول من حالة (السكون) التي نعانيها إلى حالة (حركية) شاملة ، نستلهمها من كتاب ربنا وهدي نبينا ، فإنّ فيهما سر التاريخ وسر الخلق وسر الغاية ، وإنّ فيهما التوجيه الملهم والنور الهادي إلى الحقائق العلمية البيِّنة . وإنه بمقدار ما نتعمق في فهمهما وندرك توجيهاتهما ونأخذ بمناهجهما العلمية ، بقَدر ما نكتسب فاعلية جديدة وقوة فعالة في الحياة والعلم والفكر والأخلاق .

الأسس المنهجية لبناء الفكر في الإسلام

بعد أن ذكرنا – بصورة وجيزة – أثر الكتاب والسنة في بناء الفكر العلمي وعرفنا كيف سارت الحركة العلمية في ظلال القرآن وهدي السنة النبوية ، وكيف كان الإسلام وراء كل الإنجازات العلمية والحضارية لدى المسلمين .

نود أن نذكر أهم الأسس المنهجية التي يقوم عليها بناء الفكر الإسلامي ، وفي نطاقها يفكر المسلم، وعلى ضوئها يسير ويحاكم الأمور ويصدر وجهة نظره في كل العلوم والعصور.

وهذه الأسس تعتبر القوام الأول الذي يبني عليها تفكير المسلم .

وتميّز الفكر الإسلامي من غيره من الأسس والمناهج الأخرى ، وتحدد اتجاهاته ونظمه وتضبط حركته وتشكل مناهجه وأطره الفكرية .

ومن أهم هذه الأسس التي يبنى عليها منهج الفكر الإسلامي :

١ . العقيدة التي تجمع بين العقل والنقل وعالم الغيب والشهادة .

٢ . الركائز العلمية الخلقية . (ارتباط القيم الإيمانية بالسنن الكونية) .

٣ . الأصول الثابتة والحوادث المتجددة ، والأصالة والتجديد .

٤ . ارتباط الدين بالحياة ، والقول بالعمل والإيمان بالسلوك .

٥ . الوسطية والتوازن والمرونة والسعة وعدم الغلو والتطرف .

المبحث السابع

الجفوة المفتعلة بين العلم والإيمان [1]

من خلال ما ذكرنا في حديثنا عن العلاقة بين العلم والإيمان أو الدين والعقل في الإسلام تستطيع أن تقرر باطمئنان أن الرباط بينهما قوي والوشيجة واحدة ، وأن العلم أساس الإيمان قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] وأن العلم يدعو للإيمان ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] فلا نزاع بينهما في المنهج ولا في الموضوع ، فالعلم هو الذي يكشف لنا عن توافق الحقائق الكونية مع الحقائق القرآنية ، ويؤكد لنا الألفة المؤنسة والوحدة الدائمة بينهما ، فنجد شواهد العلم واكتشافاته الحديثة واضحة في هدي القرآن الكريم ودلائله ، ولا يمكن أن يكون هناك تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وإنما يقع التعارض في الأفهام أحياناً عندما نجهل في الجمع بين الدليل العقلي والدليل النقلي أو عندما نستدل بحديث غير صحيح أو بدليل ظني أو فهم غير متكامل إلى غير ذلك ذكرها أهل العلم [2].

---

١ . راجع كتاب : الجفوة المفتعلة بين العلم والإيمان ، محمد علي يوسف ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت

٢ . راجع تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري .

أسباب فرقة الدّين والعلم [1] :

هناك أسباب أساسية عملت على افتعال العداوة والفرقة بين الدين والعلم نوجزها على النحو التالي :

١ . تعسف الكنيسة الغربية :

كانت الكنيسة الكاثوليكية في روما تنشر سلطانها على كافة أصقاع أوروبا ، وكان البابا ورجال الكهنوت يملكون حق السلطة والتعليم والحكم والفن والنظريات في كل الميادين والأنحاء .

وعندما بدأت الاكتشافات العلمية والصناعية تطل برأسها على أوروبا بدأ عرش الكنيسة الكاثوليكية يتزعزع ، وأخذ رجالها ينظرون إلى العمل العقلي والمسائل العلمية بحذر وتوجس ، حتى أدت في بعض الحالات إلى القتل والإحراق والتعذيب[2] والحرمان ، لكل من جاء بآراء أو نظريات لم تحظ من رجال الكنيسة بالقبول والموافقة ، فكانت هذه التعسفات الكنسية بداية العداوة والبغضاء بين رجال العلم ورجال الكهنوت .

ثم تفاقم الخلاف بين العسكرين ، مما حدا بكثير من رجال العلم إلى المناداة بفصل الدين عن الدولة ، وإقامة الحياة الإنسانية على المنطلق العقلي والتفكير الحر ، وهكذا بدأت تنمو ظاهرة الشك والإلحاد ((حتى يصبح الاعتقاد ، بأن كل خطوة يخطوها العلم ، ترفع الإنسان فوق نفسه درجة ، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر)) [3] ومما ساعد على هذا الانفصام

---

١ . دراسات في الثقافة الإسلامية ، د. رجب سعدي شهوان ص ٦٣ .

٢ . من هؤلاء العلماء الذين اضطهدوا من قبل الكنيسة العالم (كوبرنيكس) الذي أثبت عدم استقرار الأرض وعدم مركزيتها للكون ، والعالم (برونو) الذي قال بقول كوبرنيكس ، وقد أعدمته الكنيسة ومما يقال قبل إعدامه ((إنكم وأنتم الحاكمون عليّ أشد خوفاً مني أنا المحكوم عليه)) . ومنهم العالم ((جاليلو)) الذي اكتشف حلقات زحل ، فحرقت الكنيسة مصنفاته وحبسته حتى الموت . راجع كتاب بين الدين والعلم للأستاذ عبد الرزاق نوفل ١٣١ .

٣. انظر منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ، ٨٩ – ١٢٥ طبعة ثانية .

والبغضاء أمران ، أحدهما : أن الكنيسة لم ترزق برجال يمتلكون القدرة والملكات لاستيعاب هذه الاكتشافات والمخترعات ، أو التوفيق بينها وبين النصوص الإنجيلية أو الآراء البابوية ، وثانيهما : أن أكثر هذه العلوم قامت على أيدي عقول يهودية عانت من قسوة الكنيسة البابوية واضطهادها ، فظلت تتربص الفرص المناسبة ، لإسقاط السلطة البابوية وإفسادها ، وكان لها ذلك .

هذه قصة العلم والدين في الغرب ، فمن الخطأ والظلم ، اعتبار الأزمنة الوجدانية والعقدة العلمية في الغرب ، ظاهرة في التاريخ الإنساني كله ، وعلى التخصيص في الإسلام ، فطبيعة الإسلام تختلف تماماً عن طبيعة النصرانية .

فالإسلام لم يعرف الكهنوتية في دينه ، ولا حكر العلم على طبقة خاصة ، فالدين لله ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[الأنفال: ٣٩] والمساجد لله ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨] ، والعلم لله ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الرعد: ٩] ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] .

والإسلام رزق بأجيال متعاقبة من العلماء المتنوعين الذين استوعبوا العلوم العقلية المختلفة ، فوجهوها توجيهاً دينياً ، أو وفقوا بينها وبينه .

والإسلام لم يعرف تلك النفرة الكريهة بين الدين والعلم ، ولا العداوة بين البشر والإله ، وإنما ينظر الإسلام وعلماء الإسلام إلى الاكتشافات الكونية والابتكارات العلمية ، على أنها أدوات تعزيز للإيمان ، وترشيد للعقول في الاهتداء إلى الله تعالى .

وإذا قدر لأوروبا ألا تخرج من الركود والانخطاط ، إلى النور والحضارة والحياة ، إلا بالتخلص من الفكرة النصرانية ، فإن العكس هو الصحيح في الإسلام ، فقد بقي العرب قابعين في جاهلية ممقوتة وتخلف شديد ، ولم يعرفوا الحضارة والمجد ، والفكر والنظام ، إلا بانبعاث نور الإسلام وتعاليمه فيهم .

٢. دكتاتورية الدول والأحزاب :

ومن أسباب هيجة العداء بين العلم والدين ن ما تدعو إليه بعض الدول والأحزاب والأفراد ، من آراء لمحاولة إثارة الشك في الدين واصطناع العداوة بينه وبني العلم ، وتضع في أسرار سياساتها العليا تجميد الدين أو هدمه ، وسخرية القول والعمل بالمتدينين ، وذلك لأن الدين يقف حاجزاً في وجه ما ترسمه هذه الدول والأحزاب لنفسها من سياسات وأمنيات .

فالدكتاتورية ، وحكم الفرد المطلق ، والجبروت والطغيان ، واستغلال الجهلاء والعوام ، وإثارة الخلافات العنصرية ، وشيوع الإباحة الجنسية ، وانتشار ملكية الإقطاع ، والمصالح الخاصة ونحو هذه التصرفات ، لا يجوزها الدين وإنما يحاربها ، لهذا كان من الطبيعي ، أن تسعى بعض الدول والأحزاب لمقاومة الدين والعمل على تجميده وتدميره . فالرأسماليون محتاجون إلى عبدة الجنس من الجهلة والمخدرين لتيسير مضانعهم وقنطرة أموالهم ، والشيوعيون محتاجون إلى أصنام خلف الآلات ، فقراء وضعاء ، يصفقون لهم باستمرار ، والحزبيون يريدون العيش بين روائح الأجساد العارية وقبيح المسكرات ، وتخمة الترف والملذات ، والتنصل من الأوامر والنواهي الإلهية .

وسيظل الدين يرتفع بالأفراد إلى صعيد الحرية والكرامة ويغرس في كيانهم مشاعر الاعتزاز بالله والجهر في وجه الظالمين والمستبدين .

٣. النظريات العلمية المؤقتة :

ومن هذه الأسباب شيوع بعض الآراء والافتراضات والنظريات المؤقتة ، التي تتعارض مع الآراء الدينية ، مما يشيع في الناس أن العلم هو الصواب ، وأن الدين في طريقه إلى الإنحسار ، وأن حقائقه من دروب الخرافات والأباطيل .

ومع أنه وحتى الآن لم يصل العلم الصحيح إلى حقيقة علمية واحدة ، تنافي الدين أو تعارض القرآن ، وأن كثيراً من العلماء حين يصوغون نظرياتهم يقيمونها على أسس نسبية غير

جازمة ، ويعلمون بإمكان تغيرها أو تعديلها ، إلا أن عوام الناس يظلون يرددونها ، بل إن كثيراً من هؤلاء العوام يتعصبون لصدق بعض النظريات ، في حين أن أصحابها تراجعوا عنها ، وأقرب مثل على هذا ما قاله دارون في تقييم نظريته (إن هنالك حلقة هامة مفقودة في السلسلة العضوية التي تصل الإنسان وأقرب الحيوانات الحية إليه) ، وقال أيضاً (إن مسألة الحياة خارجة عن نطاق العقل ، ويستحيل أن هذا العالم قد صدر عن مصادفة ، لأن الصدفة لا تخلق نظاماً ولا تبدع حكماً وذلك عندي أكبر دليل على وجود الله) [1] .

لقد ألغيت كثير من النظريات وعدلت نظريات أخرى ، ولا زال السخفاء لا يعرفون ولا يتابعون ، وقد قلت من قبل : إنه لا يمكن لعقل رشيد أن يتصور تناقضاً بين كون الله وكتاب الله .

٤ . الجهل الديني والعلمي :

ومن أسباب افتعال هذه الخصومة تمسك بعض المتدينين بمعتقدات يظنون أنها من حقائق الدين ، إو إنكارهم لبعض حقائق العلم ظناً منهم أنها تتنافى مع الدين ، وذلك كأن يتمسك هؤلاء بأن الأرض غير بيضاوية ، أو غير متحركة ، وإنما هي منبسطة ومستقرة أو ينكرون وصول بشر إلى القمر ، أو التفسير العلمي لتكوين الغيوم ونزول المطر ، مع أن هذا الفريق من الناس لم يقف على علوم الفلك والكيمياء وفضاء الكون ، وقد يكون الخطأ ناتج عن فهم الآيات القرآنية أوالأحاديث فهماً غير صحيح وتفسير النصوص تفسيراً بعيداً عن المراد .

وفي الطرف الآخر فريق من العلماء يتسرع في إنكار بعض الحقائق العلمية التي سبق الدين والعلم في تقريرها ، فينطلق في تسخيفها وتخريقها من مثل قوله عز وجل ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ

---

١ . بين الدين والعلم ، عبد الرازق نوفل ١٢٥ .

﴿ سُجِّرَتۡ ﴾[التكوير: ٦] وقوله تعالى ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ [الطور: ٦] ، فقد كان العلم يقول : إن الماء يطفئ النار ، فكيف يصبح ماء البحار ناراً ؟ وبقي العلماء في موقف الشك والاضطراب من هذه الآية وأختها، حتى أمكنهم أخيراً إثبات هذه الحقيقة بفعل عملية كيميائية معقدة [1] .

وقل مثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾[التحريم: ٦] فقد كان العلم يقول: إن الحجارة تطفئ النار ، فكيف تكون وقوداً لها ؟ وبقي العلماء في شك واضطراب من هذه الآية أيضاً، حتى أمكنهم حديثاً صهر الحجارة تحت أعلى السعرات الحرارية .

والأمثلة كثيرة على هؤلاء وأولئك ، وهذا لعمري من قصر النظر ، بل من الجهل والغرور ، فإن التكذيب بما لم يحط الإنسان بعلمه ، أو لم يأته تأويله وكشفه ، خطأ لا يجوز أن يرتكبه الراسخون في الدين أو العلم ، قال تعالى : ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ﴾[يونس: ٣٩] .

٥ . اختلاف المنهج العلمي :

إن ظهور المنهجي العلمي الغربي الذي لا يقوم إلا على التجربة والبرهان العملي ، ولا يؤمن إلا بالمحسوس والمشاهد ، أدى إلى نتائج سلبية دفعت بعض العلماء والباحثين إلى اعتبار الغيبيات الدينية من دروب الخرافات .

---

١ . من المعروف أن الماء يتكون من اتحاد ذرتين من الهيدروجين مع ذروة واحدة من الأوكسجين ، وقد توصل العلماء إلى اكتشاف وجود الهيدروجين الطليق في جوف البحار وهو يختلف عن الهيدروجين العادي في أن ذراته أثقل منه ، فإذا ضغطت ذرات هذا العنصر ضغطاً كهربائياً خاصاً أو بفعل قوة حرارية طارئة فأدى ذلك إلى تحطيم إحدى ذرات هذا العنصر، أو تحطيم ذرات أوكسجين الماء فستكون النتيجة الحتمية انفراد الهيدروجين عن الأوكسجين واشتعال ماء البحار والمحيطات . راجع كتاب بين الدين والعلم للأستاذ نوفل ص ١٣٣ .

فالله والملائكة والجن عندهم أشباح خرافية ، طالما أن المجهر التلسكوبي لم يسجل رؤيتها في هذا الكون ، وسؤال الملكين ونعيم القبر وعذابه أوهام خرافية ، طالما أن آلات التنصت لم تسجل أصواتهم وتلتقط أمواجها الصوتية ، وقصة آدم وإبراهيم وإسماعيل [1] ، تراكمات خرافية ، طالما أن الحفريات والآثار لم تكشف من بقايا عظامهم شيئاً .

ولكن منهج البحث العلمي في الإسلام يقوم على الإيمان بالمحسوسات ، كما يقوم على الإيمان بالغيبيات ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ١ – ٣] وهكذا يقرر المنهج العلمي في الإسلام أن هنالك من العوالم الغيبية ما هو فوق إدراك العقل والعلم ، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالنصوص المتواترة ، وعلى هذا فالحقائق الغيبية الثابتة بالنصوص القرآنية ، تماماً كالحقائق المادية الثابتة بالحس والتجربة . وعلى الفكر الغربي أن يعدل من منهجه التجريبي ، فقد أصبح العلم الحديث يعترف بنوع من الغيبيات في الحياة والكون ، وأخذ يسلم بأن وراء كل مرحلة يقطعها من عالم الشهادة ، مراحل أخرى من عالم الغيب ، بل إن كثيراً من العلماء يعترفون بأنهم محاطون من كل جانب ببحر لجيّ من الأسرار الغامضة ، وهناك أسباب أخرى مثل التضليل الإعلامي والسلطة الفوقية ، والتعصب وانتشار الفكر الأسطوري والخرافي .

وهكذا ينتهي بنا المقام إلى ما بدأناه ، وهو وحدة الدين والعلم ، وما العداوة المفتعلة بين المعسكرين الديني والعلمي إلا استثناء في بعض النظم الطاغية أو العقول الفاسدة ، وأن قصة الصراع بين العلم والدين أو الدين والعقل قصة مستوردة من الغرب بكل فصولها ، وكان لها ملابساتها ومسوغاتها وعواملها الخاصة في الغرب ، فمن الخطأ اعتبار الأزمة الوجدانية والعقدة بين الدين والعلم في الغرب ظاهرة في التاريخ الإنساني كله، وبخاصة في الإسلام إن

---

١ . وممن تأثر بهذا المنهج د. طه حسين ففي كتابه (في الشعر الجاهلي) ص ٢٦ يقول : (إن ورود هذين الاسمين ، إبراهيم وإسماعيل في القرآن والتوراة لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي) .

التقدم العلمي والاكتشافات الكونية والتقنية هي اهتداء لسنن الله واقداره ومعادلاته المتوازنة في الوجود ، وكلها أدوات لتعزيز الإيمان وترشيد للعقول للاهتداء إلى الحكيم المدبر الصانع الملك القدوس ، حتى تلتقي السنن البانية بالسنن الهادية فينسجم الكون والإنسان والحياة في إيقاع واحد وتسبيح متناغم ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] .

إن قصة الصراع بين العلم والإيمان والدين والعقل اقتحمت علينا ميادين التعليم ومناهجنا التربوية ، فعلينا أن ندرك هذه السموم في المقررات الدراسية كنظرية التطور الدارونية ، والتفسير المادي للتاريخ ونشأة الكون ، والمصادفة في الخلق والإيجاد، مفهوم الحريات في تفسير التاريخ المادي ومفهوم الشر في العدل الإلهي والتدبير وغيرها من النظريات الفاسدة التي تساعد على انتشار الفكر الشاذ والانحراف في الأخلاق والسلوك .

المبحث الثامن

بعض المسائل الحديثة في العلم والإيمان

من منظور الشريعة الإسلامية

المسألة الأولى

الاستنساخ وطفل الأنابيب [١]

يمثل موضوع الاستنساخ Cloning واحد من موضوعات عدة مثيرة للجدل ، تشملها علوم الأحياء الحديثة ، وبخاصة علوم الوراثة والبيولوجيا الجزئية . وقد أقرت بلدان العالم وبخاصة المتقدمة منها في سنوات الثمانينات والتسعينات قوانين تضبط كل ما يتعلق بأخلاقيات البحث العلمي وتطبيقاته في مجال الثورة البيولوجية الحديثة .

ما المقصود بالاستنساخ ؟

يقصد بالاستنساخ بصفة عامة ، الحصول على نسخة أو أكثر طبق الأصل من الأصل نفسه ، وبالمعنى البيولوجي يعني معالجة خلية جسمية من كائن معين كي تنقسم وتتطور إلى نسخة مماثلة لنفس الكائن الحي الذي أخذت منه [٢].

---

(١) . هذا المبحث مفاد من الدكتور أحمد العوايشة ، انظر كتاب الثقافة الإسلامية ص ١٥٦ وما بعدها تأليف د. راشد شهوان وآخرون .

(٢) . الاستنساخ قنبلة العصر ، صبري الدمرداش ، دار الفكر الحديث الكويت ، ١٩٩٧ م ، ص ١٧-١٩.

من أين جاءت فكرة الاستنساخ ؟

إن فكرة الاستنساخ ليست جديدة ، بل هي معروفة للعلماء ، فهناك حيوانات أولية تستنسخ نفسها بأمر الله تعالى مثل البكتيريا والخميرة ، وكلاهما يتكاثر تكاثراً غير تزاوجي ، فالبكتيريا والأميبا تتكاثران بطريقة الانشطار ، والإسفنج والخميرة يتكاثران بطريقة التبرعم ، والنبات يستنسخ نفسه بأمر الله تعالى ، كالتكاثر والأبصال والفسائل ، كما في البطاطا والنخيل ونحوهما [١] .

كيف يتم الاستنساخ ؟

المعادلة : نواة خلية بدلاً من نواة بويضة :

أ. أخذت بويضة غير مخصبة ، منزوعة النواة " الكروموسومات صفر في البويضة " من نعجة اسكتلندية سوداء ، وأخدت نواة خلية متكاملة الكروموسومات من نعجة فنلندية بيضاء ، وضعت البويضة المفرغة في محلول ذي كثافة منخفضة (نيترونات) بهدف توقيف النشاطات الجينية .

ب. أطلقت شحنة كهربائية لدمج النواة في البويضة المفرغة .

جـ . أطلقت شحنة كهربائية ثانية لتحفيز الطاقة المسببة للإخصاب الطبيعي ، ليبدأ بعد ذلك الانقسام التضاعفي للخلايا على النحو المألوف الذي يتم لأية بويضة مخصبة .

د . ترك الجنين المتكون ستة أيام في المحلول ، ثم نقله بعدها إلى رحم النعجة السوداء (صاحبة البويضة المفرغة) .

هـ . بعد فترة الحمل العادية للنعجة أنجبت (دوللي) والتي جاءت شبيهة للنعجة البيضاء (التي أخذت منها نواة الخلية ، التي احتوت على كامل الكروموسومات) وقد

---

(١). انظر المصدر السابق نفسه ص ٨٠-٨٢ .

نجحت علمية استنساخ " دوللي " بعد إجراء نحو ٢٧٧ تجربة ، واستغرقت هذه المحاولات أكثر من عشر سنوات ، والذي أكد عليه العلماء في الاستنساخ هو أن تكون النواة المأخوذة من الخلية الجسمية من الكائن المراد استنساخه من نفس البويضة التي ستندمج معها ، بعد تفريغ البويضة من نواتها الأصلية ، وبلغة الوراثة يكون لكل منهما نفس العدد من الكروموسومات، فالخلية الجسمية للإنسان تحتوي على ستة وأربعين كروموسوماً " ٢٣ كروموسوماً من الأب ، و ٢٣ كروموسوماً من الأم " .

محاذير الاستنساخ وأضراره وحكم الشريعة الإسلامية فيه :

إن الاستنساخ من حيث هو إجراء علمي ومن حيث آثاره لا يخلو من محاذير تصادم نصوص الشرع الإسلامي الحنيف ، وقواعده المقررة ، وقد يبدو الضرر في بعض صورة وآثاره في الأمور التالية :

١ . إن الاستنساخ تغير لخلق الله تعالى ، ومناف للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، فقد فطر الناس على غرائز كثيرة من أهمها غريزة الزواج ، إشباعاً لها وحفظاً للتناسل.

٢ . إن الاستنساخ اعتداء صريح على كرامة الإنسان التي صانها الله تعالى ، فإخضاع الإنسان لتجارب الاستنساخ واللعب في حياته امتهان لإنسانيته .

٣. قد يكون الاستنساخ اصطفاء واختباراً لصفات محدودة دون غيرها ، كاختبار صفات الخوف أو الشجاعة ، أو الخير أو الشر ، أو القوة أو الضعف ، فيكون هذا الفعل عبثاً مخلاً ، وهوى متبعاً ، ولا شك أن هذا من المحرمات والضرر المحض .

٤ . يوقع الاستنساخ في إشكالات شرعية عديدة ، كعلاقات الإخوة أو الآباء المستنسخين ، ومن هم من الأصلاب نسباً ، وكقضايا الميراث ونحوها .

٥ . إن الاستنساخ هدم للأسرة التي بناها الزوجان ، وما جمع بينهما من رحمة ومودة وحسن عشرة ، وربط بينهما بعقد الزواج المشروع .

٦. يوقع الاستنساخ في اختلاط الأنساب ، ولا يحترم العلاقات الأسرية ، وعلاقات المصاهرة والنسب ، ولا يقيم لها وزناً ، لأنه لم يقم أساساً على قيام حياة زوجية مشروعة ، ويصادم أحد الضروريات الخمس المطلوب الحفاظ عليها ، وهو الحفاظ على النسل .

٧. إن التمادي في الاستنساخ يدخل الإنسان في دائرة الغرور ، وإغواء الشيطان حتى يهلكه ويدمر حياته وحياة غيره . والله تعالى يذكر الإنسان ويحذره من الكبر والغرور ، وطاعة الشيطان ، ويعيده لأصله المهين ويذكره به ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾[المؤمنون: ١٢ – ١٣] .

٨. وبناء على ذلك فإن الاستنساخ البشري محرم في الشريعة الإسلامية بطريقتيه ، الاستنساخ بالتشطير [1] أو بالنقل النووي ، أو الإحلال النووي للخلية ، وهو الذي يفهم من كلمة الاستنساخ إذا أطلقت ، وهو الذي حدث في النعجة " دوللي " أو بأي طريقة أخرى تؤدي إلى التكاثر البشري .

وقد نص المجمع الفقهي الإسلامي في دورته العاشرة في جدة على تحريم كل الحالات التي يقحم فيها طرف ثالث على العلاقات الزوجية ، سواء أكان رحماً أم بويضة ، أم حيواناً منوياً ، أم خلية جسدية للاستنساخ ، كما تبنى المجمع الجواز الشرعي للأخذ بتقنيات الاستنساخ والهندسة الوراثية في مجالات الجراثيم ، ووسائل الأحياء الدقيقة والنبات والحيوان، بما يحقق المصالح ويدرأ المفاسد ، وفي حدود المصالح الشرعية ، ودعا إلى عقد

(١) التشطير هو : فصل اصطناعي للبويضة المخصبة في مرحلة تسبق تمايز الأنسجة والأعضاء ، وقد أمكن في الحيوان ولم يبلغ عن حدوث ذلك في الإنسان ، وقد اعتبر ذلك نوعاً من الاستنساخ أو التنسيل ، لأنه يولد نسخاً أو نسائل متماثلة ، انظر : تصريحات د. عبد السلام العبادي وزير الأوقاف الأردني السابق عن قرارات مجلس مجمع الفقه الإسلامي ، الدورة العاشرة ، جريدة الدستور الأردنية ٦/ ٢/ ١٩٩٧م .

الندوات واللقاءات لبيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالاستنساخ ومستجداته العلمية ، وضبط مصطلحاته [1] .

استجابة لقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾[النساء: ٨٣] .

أطفال الأنابيب :

إن تسمية هذا النوع من العلاج البيولوجي بطفل الأنابيب تسمية خاطئة ، لأنه يوحي بأن الجنين ينشأ وينمو في الأنابيب ، وهذا خطأ ، والصحيح أن التلقيح فقط هو الذي يحدث في الأنابيب ، ولكي يتم ذلك لا بد من استكمال الخطوات التالية :

١. الحصول على بويضات من الزوجة تحت تأثير هرمونات معينة .
٢. أخذ بويضات سليمة حية ، وفصلها عن إفرازات المرأة ، وزرعها داخل أنبوبة اختبار
٣. إضافة مني الزوج إلى أنبوبة الاختبار لكي يتم التلقيح .
٤. أخذ البويضة الملقحة وزرعها في رحم الزوجة، حيث ينمو الجنين كالحمل العادي [2] .

---

(١) . انظر : تصريحات د. عبد السلام العبادي السابقة ، وانظر : حول موقف الإسلام من الاستنساخ كتاب الإسلام والاستنساخ ص ٥١-٥٧ ، ٥٩-٦٢ ، ٦٥-٧٧ ، والاستنساخ قنبلة العصر ص ٦٧-٧٠ ، ومقال الدكتور عجيل النشمي .

(٢) . انظر : تنظيم الأسرة في التراث الإسلامي ، ص ٢٧٨-٢٧٩ .

حكم التلقيح الصناعي، أو أطفال الأنابيب :

١. أثار التلقيح الصناعي جدلاً فقهياً في العالم الإسلامي بين العلماء والفقهاء والأطباء وأهل الفتوى والمجامع الإسلامية وصدر عنهم فتاوى وقرارات نلخصها بما يلي :

٢. التداوي بغير المحرم جائز شرعاً ، وعلاج العقم في واحد من الزوجين نوع من التداوي .

٣. إذا كان التلقيح بمني زوجها دون استبداله ، أو اختلاطه بمني غيره جائز شرعاً .

٤. إذا كان التلقيح بمني رجل آخر غير الزوج محرم شرعاً.

٥. أخذ بويضة الزوجة التي لا تحمل ، وتلقيحها بمني زوجها خارج رحمها (طفل الأنابيب) وإعادتها بعد إخصابها إلى رحم الزوجة دون استبدال أو اختلاط بمني رجل آخر ، ولداع طبي ، وبعد نصح طبيب مجرب حاذق جائز شرعاً .

٦. التلقيح بين بويضة الزوجة ، ونطفة زوجها ، ثم الجمع بينهما في رحم أنثى من الحيوان لفترة معينة ، يعاد بها الجنين إلى ذات الرحم فيها إفساد لخليفة الله في الأرض ، ويحرم فعله.

٧. الطبيب هو الخبير الفني في إجراء التلقيح الصناعي أيا كانت صورته ، فإذا كان بعلمه أو عمله ساعد على حصول التلقيح بالصور المحرمة ، كان آثماً ، وكسبه حرام ، وعليه أن يقف عند حد المباح شرعاً .

٨. كل طفل ناشئ بالطرق المحرمة قطعاً من التلقيح الصناعي يعتبر لقيطاً ، ولا ينسب إلى أب جبراً ، وإنما ينسب لمن حملت به ، ووضعته باعتباره كولد زنا .

٩. لا يكون طفل الأنابيب المتولد من طرق محرمة ابناً شرعياً للرجل ، والذي يقبل أن تحمل زوجته نطفة غيره سواء بالزنا الفعلي ، أو بما في معناه ديوث لا يغار على أهله وعرضه .

١٠. الرحم المستأجر ولو كان رحم زوجة أخرى للرجل نفسه حرام .

١١. إنشاء (بنك) تحفظ فيه نطف رجال لهم صفات معينة ، لتلقح بها نساء لهن صفات

معينة ، شر مستطير على نظام الأسرة ، ونذير بانتهاء الحياة الأسرية كما أرادها الله تعالى . فمن باب سد الذرائع وحفظاً لروابط الأسرة ، وصونا للأنساب ، يحرم الانطلاق في التلقيح الصناعي ، ولا يجوز إلا بين الزوجين فقط [1].

---

(١) انظر المصدر السابق نفسه ص ٢٧٩-٢٨٠، نقلاً عن فتوى الشيخ جاد الحق ، مارس ١٩٨٠م، المجلد ٩، الفتاوى الإسلامية ص ٣٢١٢-٣٢٣٨، مجلة مجمع الفقه الإسلامي ، الدورة الثالثة لمؤتمر مجمع الفقه الإسلامي، منظمة المؤتمر الإسلامي١٩٨٠م، المجلد ٣، ج١، ص ٤٤٨-٤٥٧، ٥١٥-٥١٦.

المسألة الثانية

زواج الأقارب بين الطب والقرآن الكريم

شاع بين الناس أن زواج الأقارب يأتي بنسل ضعيف ، حتى قيل أن العلم الحديث أثبت هذا ، واشتهر على الألسنة أن النبي ﷺ قال : ((اغتربوا لا تضووا)) هذا الحديث اشتهر على ألسنة علماء اللغة ، وقد ذكر ابن الأثير معنى الحديث فقط ، ولم يذكر من رواه ولا إسناده [1] ، وكذلك فعل ابن قتيبة بعد أن ذكر أحاديث الصحابة فالتابعين ومن بعدهم، قال : أحاديث سمعت أصحاب اللغة يذكرونها ولا أعرف أصحابها [2] ، ثم قال : جاء في الحديث ((اغتربوا ولا تضووا)) وبين المعنى ، ثم قال : " وقد أكثر الشعراء في هذا المعنى وذكر أربع أبيات ، فابن قتيبة لا يعرف صاحب هذا الحديث ، ومعنى لا تضووا لا تأتوا بأولاد ضاوين أي ضعفاء ، ومنه : لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً ، وما زعمته العرب ، وما ردده الشعراء ليس بحجة لا في الدين ولا في العلم ، وما ذكر من حديث يكون حجة لو ثبت عن الرسول ﷺ .

وقد قلب الدكتور أحمد الكباريتي أستاذ علم الاجتماع في جامعة الكويت الاعتقاد الشائع بأن زواج الأقارب يسبب انتشار الأمراض الوراثية ، ودلل على ذلك بطرح نظريات حديثة تؤكد ذلك ، وقال إنه نتيجة للبحث العلمي في مجتمع ينتشر فيه زواج الأقارب ، وآخر يكثر فيه زواج الأباعد ، وثالث يكثر في الزواج بين أجناس مختلفة ، ثبت عدم وجود أي فرق

---

(١) . انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير ج ٣، ص ١٠٦ .

(٢) . انظر غريب الحديث . ابن قتيبة ، ج ٣، ص ٧٣٣ .

بين هذه المجتمعات من ناحية انتشار الأمراض الوراثية ، وانتهى من ذلك إلى أن زواج الأقارب لا يشكل أي خطورة على الأجيال المتعاقبة [1] .

وبناء على ما تقدم نقول : إن زواج الأقارب لم يثبت علمياً على حد معلوماتنا لغاية الآن أنه السبب المباشر في نقل الأمراض الوراثية ، بل إن بعض الناس كما هو مشاهد ومحسوس تزوجوا من الأباعد فظهرت فيهم أمراض وراثية ، كما أنه لم يرد نص في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يحرم الزواج من الأقارب ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ، ولا شك أن الآية الكريمة واضحة في دلالتها على إباحة الزواج بين الأقارب من الدرجة الأولى والثانية .

وقد تزوج النبي ﷺ من بنات قريش ، وزوج ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها من ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وزوج بناته لأقاربه من قريش ، إلا أن ذلك لا يمنع زواج الأباعد لما فيه من تآلف بين المسلمين ، وتوحيد لصفهم ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يجعل الإسلام حرجاً على المسلم في الزواج من الأباعد ، فالنبي ﷺ تزوج من بني المصطلق ، ومن الأقباط ، ومن مختلف قبائل قريش والعرب ، ليعمق علاقات المودة والمحبة بين الناس ، وليقتدي المسلمون به في حياتهم ، وحتى لا يكون على المسلمين حرج في أن يتزوجوا المؤمنات الطاهرات من أي بلد كان ، أو أي جنس كان . إن الدعوة إلى تحريم الزواج بين الأقارب دعوة مرفوضة عقلاً وشرعاً ، لأن النصوص التي دعت إلى تغريب النكاح لا تصل إلى درجة

(١) . انظر صحيفة القبس الكويتية ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧م .

النصوص التي وردت في إباحة الزواج بين الأقارب ، ونستطيع الجمع بين النصوص التي دعت إلى تغريب النكاح ، والنصوص التي أباحت النكاح بين الأقارب ، بأن نشجع على الزواج من الأقارب من الدرجة الثالثة والرابعة والخامسة وهكذا ، والأهم من ذلك كله أن نشجع على الزواج من صاحبة الدين والخلق ونزوج صاحب الدين والخلق ، مع ملاحظة أن الشريعة الإسلامية لا تشجع على الزواج ممن يعلم أن سلالتهم ضعيفة ، أو لديهم بعض الأمراض الوراثية، والله أعلم .

المسألة الثالثة

العقم

إن حب الذرية أمر فطري لا تقهره عقبات مصطنعة توضع في طريقه ، فالإنسانية مهما بذلت من جهود كبيرة في مجالات تنظيم الأسرة ، أو تحديدها ، فسيبقى حب الذرية مسيطراً على مئات الملايين من البشر هنا وهناك . والزواج في الإسلام يترتب عليه الإشباع الجنسي المباح شرعاً من جهة ، ويترتب عليه حفظ النوع عن طريق الإنجاب من جهة أخرى ، فكل إنسان يرغب أن يكون له أبناء وبنات تتجدد بهم حياته وتمتد [1] ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾[النحل: ٧٢]

العقم في اللغة : عدم الجدوى ، يقال: عقل عقيم، أي لا يجدي على صاحبه شيئاً ، والعقيم الذي لا يولد له ، ويطلق على الذكر والأنثى .

العقم في الاصطلاح الطبي : هو عدم الحمل لمدة سنة أو أكثر بعد الزواج ، إذا كانت العلاقة الجنسية منتظمة ، وبدون استعمال وسائل منع الحمل .

أنواع العقم :

للعقم نوعان :

أ- العقم الأولي : وهو العقم في المرأة التي لم تلد أبداً بالرغم من تعرضها للحمل ، وكذلك الرجل الذي لم يولد له من قبل ذلك .

ب- العقم الثانوي : وهو العقم في المرأة التي ولدت من قبل ثم انقطع إنجابها بعد ذلك .

---

(١) . انظر تنظيم النسل في ضوء الشريعة الإسلامية، أحمد العوايشة، اللجنة الوطنية للسكان، الأمانة العامة، عمّان. ص ٢٢ .

علاج العقم :

يعتبر العقم بين النساء والرجال مشكلة تحتاج إلى الرعاية والاهتمام ، وللعقم أسباب خاصة بالرجال وأسباب خاصة بالنساء ، وأسباب خاصة بهما ، وقد تمكن العلماء من معرفة كثير من أسباب العقم عند الرجال وعند النساء ، ولا يزال ١٠ - ٢٠ ٪ من حالات العقم لا يعرف لها سبب ، لا في الرجل ولا في المرأة ، وقد توصل الطب الحديث ، بإرادة الله تعالى إلى طرق مختلفة لعلاج العقم منها [١] : .

١. العلاج الكيماوي بالهرمونات والعقاقير الأخرى .

٢. العلاج الجراحي ومعظمه جراحات دقيقة لإزالة العقبات في طريق الخلايات الجنسية " الإنجاب " ، مثلاً " بإعادة فتح قناتي فالوب المسدودتين " .

٣. التلقيح الصناعي : وهو تلقيح البويضة بماء الزوج مع تفادي العقبات ، مثل خيط المخاط المكثف والضار للحيوانات المنوية ، والموجود حول عنق الرحم ، ويكون ذلك التلقيح بيولوجياً ، أي يحدث داخل الرحم ، أو صناعياً خارج جسم المرأة ، مثل طفل الأنابيب [٢] .

---

(١) . راجع كتاب الشفاء من العقم ، د. محي الدين كحالة ، دار عمار ، الأردن .

(٢) . انظر تنظيم الأسرة في الإسلام ، عبد الرحمن عمران ، نشر صندوق الأمم المتحدة للسكان ، مزيدة ومنقحة من الطبعة الإنجليزية ١٩٩٤ م ، ص ٢٧٦-٢٧٨ .

التعقيم :

يقصد بذلك التعقيم الصناعي بغرض منع الحمل بصفة دائمة " التعقيم الدائم " أو بصفة مؤقة " التعقيم المؤقت " .

حكم التعقيم في رأي علماء الشريعة الإسلامية :

١. التعقيم المؤقت : وهو الذي يمكن رده حسب رغبة الزوجين ، ويرى العلماء أنه مباح قياساً على وسائل منع الحمل .
٢. التعقيم الدائم لضرورة صحية كوجود السرطان في البروستات عند الرجل ، أو سرطان المبيض عند المرأة ، وهذا مباح شرعاً للضرورة الصحية ، والضرورة تقدر بقدرها .
٣. التعقيم الدائم لغير ضرورة صحية وشرعية : وهذا التعقيم محرم في الشريعة الإسلامية ، وقد ندرك الحكمة من تحريم التعقيم الدائن لغير ضرورة صحية ملزمة ، بأن التعقيم الدائم مخالف لمقاصد الشريعة الإسلامية من الزواج ، وفيه إدخال الضرر على أحد الزوجين أو كليهما ، سواء أكان بعد الإنجاب أم قبله ، ولأن أولادهما عرضة للفقد دفعة واحدة ، أو على التوالي ، فما يكون حال الأبوين وقد ذاقا طعم الأبوة والأمومة ، كما أنهما أو أحدهما قد يفقدان بالتعقيم الصلاحية للإنجاب ، مما يوقعهما في محنة ومشقة نفسية قاسية ، إذ لا يستطيعان تدارك ما فاتهما . [١]

(١) . انظر : تنظيم النسل في ضوء الشريعة الإسلامية ص ١٩ .

المسألة الرابعة

التداوي والوقاية والصحة في الإسلام

أولاً: نظرة الإسلام إلى التداوي والأخذ بالأسباب :

إن الإسلام يدعو إلى التداوي وعدم التّواكل لأنّ التـداوي لا يتعـارض مـع التّوكُّـل ، والنهي إنما عن التداوي بالمحرمات إلا عند الضرورة . وفي الحديث الذي رواه مسـلم وغـيره عن النبي ﷺ قال : ((لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجـل)) . فـدل الحديث على مشروعية التداوي واسـتحبابه وأن الله جعـل لكـل داء دواء ، وفي هـذا تشـجيع للبحث والتفتيش عن الأدوية المناسبة لمعالجة الأمراض ، كما بـيّن النبـي ﷺ في هـذا الحـديث القواعد الأساسية في علاج الأمراض وهي تشخيص الـداء أولاً ، ومعرفـة حقيقتـه بواسـطة الطبيب المختص ، ثم وصف الدواء المناسب لهذا الـداء ، ولا شـك أن الشـفاء متوقـف عـلى الإصابة بإذن الله . ومدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته ، والتداوي لا ينـافي التوكـل كـما لا ينافيه دفع الجوع والعطش للأكل والشرب ، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافيـة ودفع المضار وغير ذلك ..

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكـون لكـل شيء سـبب ، فـالأمراض التـي تصـيب الإنسان لا بد لها من أسباب ، فإذا أردنا التخلص من هذا المرض كان لا بد من معرفة سـببه ، وإزالة هذا السبب .

وبذلك يزول المرض ، ويعود الإنسان سـليماً معـافى ، لانتظـام الـترابط بـين الأسـباب والمسببات ، حيث ربط رسول الله ﷺ بين المرض والعلاج ، وبين أنه لا يوجد مرض إلا ولـه علاج ، ولا يوجد داء إلا وله دواء ، قال رسول الله ﷺ ((لكل داء دواء ، فإذا أصاب الـدواء

الداء برأ بإذن الله تعالى)) [1] ، ومعنى الحديث أن الله تعالى حين قدر الداء قدر له الدواء ، وأن المريض إذا أخذ هذا الدواء متبعاً جميع شرائط تناول الدواء ، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى [2] وإن عدم وصول الأطباء إلى معرفة بعض الأدوية لبعض الأمراض المستعصية لا يعني أنه لا علاج لها على الإطلاق ، لكن قدرات الأطباء والعلماء المختصين في علم الأدوية العقلية والعلمية لم تتوصل إلى كشف الدواء المناسب لها .

ثانياً: عناية الإسلام بالجسم :

عني الإسلام عناية كبيرة بالجسم ، وتتمثل هذه العناية في طرق متعددة منها :

أ- **النظافة:**

شرع الإسلام النظافة ودعا إليها في مواقف كثيرة منها : الوضوء ، والغسل ، وغسل اليدين قبل الطعام وبعده ، وبعد الاستيقاظ من النوم ، لأن الإنسان لا يعلم أين باتت يده أو أين أصبحت ، ونظافة الفم والأسنان ، وذلك باستعمال السواك في مواقف متعددة ، بعد الوضوء، وفي الصلاة ، وعند قيام الليل ، وغير ذلك ، ويجوز استخدام الفرشاة ومعجون الأسنان ، وكذلك المضمضة في الغسل والوضوء ، وتدليك الأسنان بالأصابع أثناء الوضوء، وجعله من السنة . كما حث الإسلام على نظافة الرأس وتكريمه والعناية به ، بغسله وتسريحه ، وقد شبه النبي ﷺ التاركين شعورهم دون عناية أو رعاية بالشياطين في هيئتهم.

كما حث الإسلام على لبس الثياب النظيفة ، والاهتمام بزينة المسلم . ولا شك أن الثياب الجميلة والنظيفة لها فوائد عديدة منها ، حفظ الصحة ، وكرامة من يتجمل بها في نفوس

---

(١) . المسند ، الإمام أحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي، بيروت ، ١٤٠٥ هـ، ج ٣، ص ٣٣٥ .

(٢) . انظر دراسات في الثقافة الإسلامية ص ٤٥٣ .

الناس، وإظهار نعمة الله تعالى على لابسها . والمؤمن يثاب على كل ما هو محمود من هذه الأمور بالشكر عليها .

ب- **الرياضة:**

عني الإسلام بالرياضة لأنها تعطي الجسم قوة وحيوية ، والمسلم مطلوب منه أن يكون قوياً في بدنه ، حتى يقوم بحق الله عليه في الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله ، والاستعداد للجهاد بالتدريب على السلاح ، وألوان الرياضة المختلفة التي يتاح له ممارستها ، مما لا يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية . وقد أرشد النبي ﷺ إلى الرمي والسباحة وركوب الخيل ، والجري، والمصارعة ، ونحو ذلك من ألوان الرياضة التي كانت تمثل القوة في تلك الفترة وما تزال ، وهكذا وضع النبي ﷺ الأسس التي تنشئ المسلم القوي الشجاع الذي يكون عدة للوطن ، وفخراً للأمة [1] .

ج . عناية الإسلام بالجسم عن طريق الرخص:

الرخص في اللغة : اليسر والتخفيف ، وأما في الاصطلاح فهي: اسم لما شرع من الأحكام لعذر تخفيفاً وتيسيراً على أصحاب الأعذار .

إن الإتيان بالرخص وإن كان أمراً تعبدياً ، إلا أن فيه حكمة أخرى ، ألا وهي المحافظة على صحة المسلم ، وإبعاده عن الأمراض ، وإنقاذه من المهالك ، وتوفير كل السبل التي ترفع من مستواه الصحي ، وتشمل الرخص المرأة والرجل على السواء ، ومن هذه الرخص على سبيل المثال لا الحصر:

١ .**التيمم:** فلو أصيب إنسان بمرض جلدي ، أو أي مرض ، أو جراحة في جسمه ، أو أي عضو من أعضاء الوضوء ، وأخبره الأطباء الثقات بخطورة استعمال الماء لأنه سيزيد من

(١) . انظر المصدر السابق ص ٤٥٧-٤٦٦ .

علته ، أو يؤخر شفاءه ، جاز له أن يتيمم أو يمسح على الجبيرة ، ونحو ذلك من الرخص في الغسل والوضوء .

٢. **الفطر في رمضان:** رخص الإسلام للمسافر والمريض ، الرجل والمرأة ، الفطر في رمضان ، وإعادة ما أفطرا بعد العودة من سفرهما ، أو شفائهما من مرضهما ، فالمريض بحاجة إلى الغذاء والدواء للقضاء على المرض ، والصيام يضعفه ويؤخر شفاءه ، ويزيد من مرضه لأنه يمنعه من تناول الدواء والغذاء . والسفر قطعة من العذاب لأنه مشقة وتعب ، والمسافر يفقد كثيراً من قوته وطاقته ، والصيام قد يزيد من فقدان القوة والطاقة . كما أوجب الإسلام على المرأة الحائض والنفساء الإفطار في رمضان ، وقضاء ما أفطرت بسبب عذرها ، فالحائض أو النفساء يخرج منها كمية من الدماء مصحوبة بالآلام والمشاق تؤثر على قوتها بالضعف والهزال ، وإمداداً للمرأة بالقوة والحيوية ، وتعويضاً لما فقدته من الدماء، أوجب الإسلام عليها الإفطار في رمضان . وهكذا نجد الإسلام برحمته الشاملة ، وفضله العميم قد رخص للمسلم والمسلمة في ترك بعض الواجبات مراعاة للبنية الجسمية ، والصحة البدنية ، وحفاظاً على الحيوية والنشاط لديهما [١] .

د. عناية الإسلام بالجسم عن طريق جعل التكاليف قدر الطاقة:

من رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان المسلم أنه حين كلفه بالعبادات ، أو بأي أمر من أمور الدين والدنيا لم يكلفه فوق طاقته ، ولم يفرض عليه شيئاً لا يستطيع القيام به ، ولم ينهه عن أمر لا يستطيع الانتهاء عنه ، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦]. ومن رحمة الله تعالى بعباده جعله العبادات ميسرة ، لا إرهاق فيها ، ولا ضرر يلحق بصحة الإنسان المسلم وبدنه ، وجعله العبادات شاملة لكل شي في حياة المسلم .

هـ عناية الإسلام بالجسم عن طريق حل كل ما فيه نفع له:

---

(١) . انظر المصدر السابق نفسه ص ٤٦٧ -٤٦٨ .

يسير الإنسان بقدرة الله تعالى في طريق النمو شيئاً فشيئاً حتي يصير شاباً جلداً قوياً ، فما الذي صيره قوياً ، إنه الغذاء الذي أحله الله له ، ومنه الدهنيات ، والنشويات ، والبروتينات والسكريات .. وكل هذه الأنواع المفيدة للجسم أحلها الله تعالى للإنسان ، طالما أن مصدرها حلال ، وثمنها من المال الحلال [1] ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] .

ثالثاً : الطب الوقائي:

إن الإسلام حين وضع أسس الطب الوقائي صبغ ذلك بصبغة دينية ، حتى يتمسك المسلم بها تمسكاً قوياً ، ويعمل بها لأنها صادرة عن الله تعالى ، وعن رسوله ﷺ .

أ- وقد حرم الله سبحانه وتعالى مجموعة من الأطعمة والأشربة ، لأن فيها أضراراً جسدية ونفسية واعتقاديه على الإنسان المسلم . أكد الطب الحديث أضرار هذه المحرمات على صحة الإنسان ، قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ﴾[المائدة: ٣] .

ب- نهى الله تعالى عن الإسراف في تناول الأطعمة والأشربة الحلال وقاية للمسلم، وطالب بالاعتدال والوسطية، لأن المعدة في الإنسان هي أساس المرض، وبيت الداء [2]. قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١] .

---

(١) . انظر المصدر السابق نفسه ص ٤٦٨-٤٧١ .

(٢) . انظر المصدر السابق نفسه ص ٤٧٦-٤٧٧ .

ج- الإفرازات التي يفرزها جسم الإنسان: هذه الإفرازات التي يفرزها جسم الإنسان، إذا لم تراعى فيه نظم الإسلام وأسسها، كانت وبالاً عليه، وعلى المجتمع من حوله، وتجلب له ولبيئته الأمراض المختلفة، التي قد تفتك بالناس، وهذه الإفرازات قسمان:

١. البول والبراز: وهما من المستقذرات التي يفرزهما الإنسان، وفيهما من الطفيليات ومسببات المرض الشيء الكثير، وقد أمر النبي ﷺ بالاستنجاء من البول والغائط، بالماء والحجارة أو ما يقوم مقامهما، ونهى عن البول والبراز في الماء الراكد أو الجاري، أو في طريق الناس، أو في مكان يستظلون به، لأن رائحتهما تؤذي الناس، فضلاً عما يسببه البول والبراز لهم من أمراض ناشئة عن الجراثيم الموجودة فيهما [١].

٢. الحيض: كان من عادة اليهود لايؤاكلون الحائض والنفساء، ولا يلمسونها ولا يتحدثون معها، لأنها في نظرهم نجسة، تجب مقاطعتها. ولما جاء الإسلام وسأل الصحابة النبي ﷺ عن حكم التعامل مع الحائض والنفساء، أمرهم النبي ﷺ أن يفعلوا كل شيء مع نسائهم إلا الجماع، ومن يأتي امرأته زمن الحيض أو النفاس يكون عاصيا لله تعالى، ومتعديا لحدوده، وقد أثبت الطب الحديث الأضرار الجسمية والنفسية التي تلحق بالرجل والمرأة على السواء في الجماع وقت الحيض أو النفاس [٢]، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

د. ظهور بعض الأمراض المعدية:

---

(١). انظر المصدر السابق نفسه ص ٤٧٦-٤٧٧.

(٢). انظر المصدر السابق نفسه ص ٤٨٠-٤٨١.

لقد عالج الإسلام هذه القضية ووضع ما يسمى في العصر الحديث في الحجر الصحي ، حيث قرر أن المرض المعدي إذا ظهر في منطقة من المناطق يلزم القيام بأمرين :

١ . منع الخروج من المنطقة الموبوءة إلى منطقة أخرى ، حتى لا تنتقل العدوى من هذه المنطقة إلى المناطق الأخرى ، فينتشر المرض ويعم كثيراً من الناس .

٢ . منع الدخول إلى المنطقة الموبوؤة حتى لا تنتقل العدوى إلى الناس خارجها .

ونجد قواعد الحجر الصحي التي وضعها الإسلام ، في جملة من أحاديث نبوية شريفة منها: قول النبي ﷺ في بعض الأمراض المعدية كالطاعون مثلاً : ((إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه)) [١] . ، واعتبر النبي ﷺ أجر المسلم الصابر الذي لا يخرج من بلده إذا أصابها وباء عام كأجر الشهيد ، قال ﷺ : ((فليس من عبد يقع الطاعون فيتمكن في بلده صابراً يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد)) [٢] .

---

(١) . صحيح البخاري ، محمد بن اسماعيل البخاري ، المكتبة الاسلامية ، استانبول تركيا، كتاب الطب ، باب من يذكر في الطاعون ، ج٧ ، ص ٢٢ .

(٢) . المصدر السابق نفسه . كتاب الطب . باب أجر الصابر في الطاعون ج ٧ ص ٢٢ .

المسألة الخامسة

المحافظة على البيئة في الإسلام

إن موضوع المحافظة على البيئة في الإسلام موضوع مهم ، وله جوانب متعددة جديرة بالبحث والبيان ، ومن ذلك :

١ . مفهوم البيئة :

إن علماء العصر الحديث توسعوا في مفهوم البيئة ، وقالوا : البيئة هي ذلك المحيط الذي نعيشه حساً ومعنى ، ويحتوينا بكل معني الاحتواء ، وهي مجموعة من البيئات المختلفة كالبيئة الاجتماعية ، والاستوائية ، والمدارية ، والقطبية، والبحرية ، والجبلية ، والصحراوية ، والمدن ، والقرى والبادية إلى غير ذلك . وهذا عرف اصطلاحي لا يتعارض مع الإسلام [١]. والكرة الأرضية هي البيئة الكبرى لحياة الإنسان ، جعلها الله تعالى صالحة لحياته وعيشه ، فأودع فيها العوامل الأساسية للحياة ، وهي التربة والماء ، والهواء والغذاء ، والحرارة والبرودة . وكان قدر الإنسان أن يعيش فيها ، وليس في مقدوره أن يكون منفصلاً عنها أو عن نظامها لأنه من طينتها ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، وبناء على ذلك فإن على الإنسان أن يكافح في سبيل العيش في الأرض ، ويتذرع بكل قوة لمجابهة ظروفها ، ويشمر عن ساعد الجد في سبيل تحويل جفافها إلى خضرة ، وتحويل

(١) . انظر مقال الشيخ عز الدين الخطيب التميمي – رحمه الله – عن البيئة ، جريدة الرأي ٢٤/ ٧/ ١٩٩٩م ، ص ٢٢ ، التلوث البيئي بين الإسلام والقانون الدولي والتطبيق الأردني ، محمد خلف اللافي ، ١٩٩٤ م ، ص ١٣-١٤ .

صحاريها إلى جنات فيحاء ، وتحويل جبالها إلى غابات خضراء ، واستخراج الخيرات الدفينة من باطنها .

٢. قيمة الإنسان وكرامته :

عن الإنسان مخلوق يكرم ، وهو حجر الأساس في الرسالات الإلهية ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] ، فمن حق هذا الإنسان أن يشم هواء عليلاً ، ويشرب ماء نقياً ، ويأكل طعاماً مفيداً ، ويسكن بيتاً نظيفاً ، ويتمتع ببيئة جميلة . وأن أي عامل من العوامل الضارة التي تفسد الهواء الذي يتنفسه ، والماء الذي يشربه ويستعمله ، والغذاء الذي يتناول يتعارض مع كرامته ، ويجب أن ينفي من حوله ، وأن يستبعد من محيطه وبيئته [١] .

٣. فضل الإسلام في نظرته إلى البيئة والمحافظة عليها :

ويمكننا إجمال فضل الإسلام في نظرته إلى البيئة والمحافظة عليها في النقاط التالية :

أ- سبق الإسلام الأنظمة المعاصرة في تأكيده على المفهوم الواسع للبيئة ، بحيث يشمل الموارد الاجتماعية ، والموارد المادية المتاحة لإشباع حاجات الإنسان .

ب- قرر الإسلام أن البيئة بكل ما فيها سخرها الله للناس حتى ينتفعوا بها فيها استمراراً لمعاشهم ، وعمراناً لحياتهم ، وهي نعمة من الله تعالى تستحق الشكر من جانبهم .

ج- قرر الإسلام أن الأرض جعلها الله تعالى صالحية لحياة الإنسان ، وان تلوثها كان من جراء إفساد الناس لها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] ، ونهى عن الإسراف في استتراف مواردها ، كالماء والكهرباء والمحروقات ، وأكد على أن استمراء عطاء الأرض بما فيها مشروط بالمحافظة على مواردها ، ودفع حقوق الله ، وحقوق المحرومين الواجبة فيما يخرج منها .

---

(١) . انظر المقال السابق .

د- حث الإسلام على نظافة البيئة أرضاً وماء وهواء ، قال ﷺ : ((أمط الأذى عن الطريق لك صدقة)) [1] وقال ﷺ : ((من قطع سدرة في فلاة يستظل ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها ، صوب الله رأسه في النار)) [2] .

ه- طبق الإسلام عملياً مبادئه ، ومفهومه عن البيئة ، وجعل الالتزام بها من قبل الأفراد والدولة عبادة لله تعالى ، فقد فهم المسلمون واجبهم نحو البيئة ، وتمثلوه في حياتهم في السلم والحرب ، حيث أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامة بن زيد وجنده قائلاً : " لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخيلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً " [3] .

هذا الموقع المتميز للإسلام يميزه بوضوح عن الأنظمة الجاهلية المعاصرة ، التي تطلق القنابل النووية ، والجراثيم وتحرق الأخضر واليابس في سبيل فرض سيطرتها ، دون تفريق بين طفل وامرأة ، ونبات وحيوان ، وما تزال تسعى إلى تدمير الكون من خلال ما تسميه حرب النجوم ، واستغلال فقر الدول ومديونيتها ، في دفن النفايات السامة ، ومخلفات مصانعها النووية ، والجرثومية والكيمياوية وغيرها في أراضيها [4] بمساندة الفاسدين من حكامها .

٤ . تلوث البيئة والوقاية منه :

---

(١) . الجامع الصغير ، جلال الدين السيوطي ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) . السنن الكبرى ، أحمد بن الحسين البيهقي ، مجلس دائرة المعارف النظامية – الهند ، ١٣٤٤هـ ، ط١، ج ٦، ص ١٤١ .

(٣) . تاريخ فتوح الشام ، الأزدي ص ١٢ .

(٤) . انظر دراسات في الفكر العربي الإسلامي ط ٥ ، ص ٣١٠-٣١١ ، التلوث البيئي ، ص ٥٤-٥٥ ، مقال الشيخ عز الدين الخطيب السابق .

لا شك أن تلوث البيئة كما يهدد الإنسان ، فإنه يهدد الثروة الحيوانية والزراعية والمائية والصناعية ، وهو يثير القلق والمخاوف ، ويلحق بالحياة كثيراً من الخسائر الجسيمة . ومصادر التلوث كثيرة ، منها الغازات بأنواعها ، والمبيدات الحشرية ، والإشعاعات النووية وغبار الأرض والمصانع وغيرها من الملوثات ، التي تصل إلينا ، عن طريق الهواء الذي نتنفسه ، والماء الذي نشربه ، والطعام الذي نأكله ، والثوب الذي نلبسه ، وعن طريق الجلد الذي يكسو أجسامنا . ومن هنا فلا بد من الوقوف بحزم أمام أخطار التلوث البيئي ، وبذل الجهود المشتركة المخلصة الواعية للوقاية منه، والعمل على معالجة أسبابه، والحد من آثاره بكل ما لدينا من قوة وإرداه. وقد وجه الإسلام أتباعه للوقاية من التلوث ، بجملة توجيهات منها:-

أ- أنه أمر المسلمين بدفن الموتى في باطن الأرض، لأنه عنصر مهم من عناصر المحافظة على البيئة، وحمايتها من التلوث، وتكريم للميت.

ب- الحجر الصحي ، وقد كان الإسلام سباقا إلى الحجر الصحي ، وقد تجلى ذلك في توجيه النبي ﷺ للوقاية من الأمراض قبل وقوعها وبعد وقوعها.

٥- نماذج من دعوة الإسلام للمحافظة على البيئة :

أ- عناية الإسلام بنظافة الإنسان وطهارته ، ذلك أن عبادة الله تعالى لا تصح إلا بالطهارة .

ب- عناية الإسلام بنظافة المنازل وما حولها ، حيث دعا المسلمين إلى تنظيف منازلهم وأفنيتهم من القمامة والقاذورات ، لأنها بؤر للروائح الكريهة ، ومكان لتوالد الجراثيم، وملتقى الحشرات والبعوض والذباب والجرذان ، فقذارة البيئة تسبب الضرر والضرار ، ونهى المسلمين عن التشبه باليهود الذين لا ينظفون بيوتهم وأفنيتهم .

ج- عناية الإسلام بنظافة المساجد : حث الإسلام على نظافتها لتستقبل أفواج المصلين ، فتنشرح صدورهم ويطيب لهم المكوث فيها .

د- عناية الإسلام بنظافة الطرق : إن المشاركة في تنظيفها ، ورفع الأذى عنها نوع من العبادة ،وقد اعتبر النبي ﷺ إماطة الأذى من الطريق صدقة لأنها مرفق عام. وقد جاءت تشريعات مهمة في كتب الفقه الإسلامي لها علاقتها المباشرة في المحافظة على بيئات المدن ، ودور نظام الحسبة في المحافظة على البيئة ، وتنظيم الصناعات والحرف والمرور والطرق ، وتحديد بناء أماكن السكن والأماكن العامة ، والشوارع ونحو ذلك.

ه- عناية الإسلام بالغذاء وحمايته من التلوث :

أباح الله سبحانه وتعالى للإنسان الغذاء الذي يستفيد منه في بناء جسمه، والقيام بأعماله، قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾[المائدة: ٨٨] ، فأباح الله للإنسان أن يأكل من طيبات الرزق التي أحلها لعباده من لحوم الأنعام والطيور والأسماك ، والخضر والفواكة والحبوب ونحوها، واستثنى بعض المأكولات والمشروبات ، فحرمها حماية للإنسان من أضرارها المادية وأضرارها على الإيمان، مثل الميتة والدم، ولحم الخنزير، والخمر والمخدرات وغير ذلك مما ذكرنا سابقاً، والغذاء المباح بجميع أصنافه وأنواعه ينبغي أن يحفظ في الأمكنة النظيفة، والأوعية المطهرة لئلا يكون عرضة للحشرات أو جراثيم تسقط فيه فتلونه وتحوله إلى سم قاتل.

و- عناية الإسلام بالماء :

يعتبر الماء عنصر البيئة الأهم الذي تعتمد عليه حياة الأفراد والشعوب ، والحيوان والنبات، وعليه قامت الحضارات وازدهرت، فلولا الماء لما كانت الحياة ولا كان الأحياء، فهو من نعم الله الكبرى، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾

[الأنبياء: ٣٠]. ومن الأخطار الكبرى أن يتعرض الماء للتلوث، في البرك والسدود والآبار والأواني، والأنهار والبحار والبحيرات والمحيطات وغيرها ، بتفجير الأسلحة النووية، أو استعمال المتفجرات من صيادي الأسماك في العالم. فالنبي ﷺ نهى عن تلويث الماء بالبول فيه سواء أكان الماء راكداً أم جارياً، ونهى الإنسان أن يتنفس في الإناء أو ينفخ به، أو يشرب من فم السقاء حتى لا ينتنه، ونحو ذلك .

ز- التحذير من النار والحدائق :

لقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده بأنه جعل لهم النار يستخدمونها في شؤون حياتهم، ويقضون بها كثيراً من حاجاتهم ، وكما أن في النار مصلحة فإن فيها مضرة كبيرة إذا أهملت، فكثيراً ما تحدث الأضرار الجسيمة في الفنادق ، والمستشفيات ، والمنازل والمزارع والغابات، والسفن ، والطائرات ، والمتاجر والأرواح ، وغير ذلك ، فضلاً عن تلويث الهواء بسبب ما تحدثه من دخان ينتشر فيه . وقد حذر النبي ﷺ من الغفلة عن النار ، وعدم الاهتمام بها تحدثه من خسائر وأضرار . وفي تحذيره ﷺ دعوة إلى اتخاذ الاحتياطات والإجراءات الوقائية من أخطارها مهما كان مصدرها ، الحطب ، الحجر ، الزيت ، الغاز ، الكهرباء ، المتفجرات [١].

٦ . الثقافة واجب شرعي :

انطلاقاً من القاعدة الشرعية " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " نستطيع القول : إن عملية التثقيف البيئي أمر ضروري ، وواجب شرعي ، ذلك أن الثقافة البيئية طريق إلى المحافظة على البيئة ، التي هي واجب من الواجبات الشرعية ، للاعتبارات المذكورة في الكتاب والسنة ، اللذان يقدمان تثقيفاً إيمانياً رائعاً عن البيئة ، وعما يحميها من عوامل الفساد ، وعما يبقيها سليمة صالحة لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، وإن صلاح البيئة

---

(١) .انظر مقال الشيخ عز الدين الخطيب السابق .

له أبعاد إيجابية اقتصادية وسياسية ، واجتماعية وأمنية في حياة الشعوب والأمم ، فمن خلاله تظهر قدرة البلاد على تأمين غذاء كاف لشعبها ، والكائنات الحية الأخرى في كل الأوقات والأحوال ، ضمن حياة رغيدة مفعمة بالنشاط والصحة والحيوية، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٧] ، إن المغزى العظيم من النصوص الإسلامية المتعلقة بالبيئة هو توطيد الإحساس العميق لدى المسلمين، واستنهاض هممهم للإسهام في المحافظة على البيئة، واستغلال خيراتها، وحمايتها من كل ما يؤذيها، بدافع من عقيدتهم وشريعتهم[1].

(١) . انظر مقال الشيخ عز الدين الخطيب السابق .

المبحث التاسع

إيضاح لبعض السنن والقوانين

والظواهر العامة في الكون

إذا أردنا أن نفهم كيف يدار الكون ، وما هي القوانين القرآنية التي تحكمه والمعادلات الربانية التي يجريها العليم الخبير في هذا الملكوت فيما يخصنا ويهمنا من العلم وينفعنا من المعرفة ويكون في حدود طاقاتنا ، فلا بد أن نعرف أن للكون طبيعة سماوية وطبيعة أرضية ، وللطبيعة السماوية عناصر منها الشمس والقمر والنجوم ، وتتكون الطبيعة الأرضية كذلك من عدة عناصر منها الجبال والبحار والأشجار وغير ذلك .

والظواهر الكونية ترتبط بالعناصر ارتباطاً سببياً فمثلاً : البرودة والحرارة والمد والجزر في البحر ، والخسوف والكسوف .. وغيرها من الظواهر الكونية ترتبط بالعناصر الكونية ارتباطاً سببياً .

فالسنن الكونية تجري من خلال ظواهر كونية معينة لو درسها الإنسان ودرس طبيعتها وخطواتها وكيفية تأثيرها وتأثرها لفتحت له آفاقاً وتفاصيل من المعرفة المستمرة لا حدود لها وانتفع بها في كثير من تطبيقاته العلمية والعملية في معاشه وعمرانه ، ومن هذه الظواهر [1] :

---

(١) . انظر : الله والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل ص ٦٦-٦٨ .

وانظر : العلم يدعو للإيمان ، ص ٦٩-٧٠.

انظر الله والكون : د. محمد جمال الدين الفندي ، ص ٢٦٦-٢٢٨.

وانظر : الإسلام والنظر في آيات الله الكونية ، ص ١٥٠-١٥١.

١. ظاهرة الزوجية :

خلق الله – عز وجل – هذا الكون، وألزمه سنناً ضابطة ، وقواعد هادية وقوانين ثابتة .

ومن بين هذه السنن التي ثبتها الله – جل جلاله – في هذا الوجود ، وثبت الوجود بها : سنة الزوجية[1] لقد حفل الكتب العزيز بآيات عديدة تفصل القول وتوضحه في سنة الزوجية ، يقول عز وجل : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦] ، ويقول جل ثناؤه : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧ – ٤٩] ، تقرر الآيتان السابقتان وغيرها من الآيات الكريمة أن سنة الزوجية سنة عامة وقاعدة شاملة لجميع الخلق ، فكل شيء في هذا الكون – والإنسان شيء والحيوان شيء والنبات شيء، والجماد شيء ، والأشياء متنوعة متعددة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل – أبدع على قانون أو سنة الزوجية ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦] فبناء الكون على قاعدة أو سنّة الزوجية آية من آيات الله القائل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] .

ويجيء العلم الحديث المؤسس على الملاحظة والنظر والمشاهدة العلمية والتجارب ليكشف عن جانب من أسرار هذه السنة وهذا القانون الذي طبعه الله في الأشياء كلها ، فقد اكتشف العلماء في مجال علم الأحياء بقسميها، أعني: عالم الحيوان ، وعالم النبات ، نظاماً دقيقاً يدعو إلى الدهشة والوقوف أمام عظمة الإبداع الإلهي وروعته بكل خشوع وإجلال له سبحانه .

---

(١) . أن التناسق والتزاوج والتكامل هو أساس الاتساق الكوني والتقدم العلمي ، أما فكرة الصراع والتناقض أو الجدل بالمفهوم الماركسي فهي كفيلة بتدمير الحياة والقضاء عليها سواء أكان ذلك في مجال المادة أم مجال الفكر والخلق والسلوك .

إذ اكتشف العلماء التجريبيون أن كل شيء في هذين العالمين (الحيوان والنبات) مبني على أساس زوجي ثنائي ، فيتشابه الإنسان والحيوان والأسماك والطيور والحشرات ، وكل الكائنات الحية ، التي أحيط الإنسان بها علماً ، والنبات بأنواعه وأشكاله في خاصية الزوجية، فلا يتم التلقيح إلاّ إذا اجتمع العامل الذكري بالجانب الأنثوي ، إذ الزوجية في عالمي الحيوان والنبات سنة إلهية ، والسنن الثابتة لا تتبدل ولا تتحول ، ولقد هيأ الله سبلاً شتى ووسائل عدة لهذا الاجتماع الزوجي ، ففي النبات مثلاً : تقوم الحشرات والنمل والنحل والفراش .. بوظيفة هامة جداً في نقل اللقاح وكذلك الرياح تقوم بنقل اللقاح إلى مسافات ومساحات بعيدة جداً تدعونا إلى الدهشة والإعجاب .

ويسند الخالق العظيم هذه السنة إلى ذاته الجليلة فيقول : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣ – ٤٥] ، ويقول : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[القيامة: ٣٦ – ٣٩] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [الليل: ١ – ٣].

وسنة الزوجية تتعدى الحيوان والنبات لتشمل الجماد أيضاً: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ففي عالم الكهرباء والمغناطيس مثلاً لا يتم الفعل الكهربي ولا يقوم النشاط المغناطيسي إلاّ في ظل الزوجية القائمة على السلب والإيجاب ، والتفاعلات الكيميائية لا تتم إلاّ وفق الشحنات الزوجية ، والذرة التي هي الوحدة الأساسية لبناء الكون مؤلفة من زوجين : الإشعاع الموجب ، يتزاوجان ويتحدان ، وعندما شطرت هذه الذرة وجد أن بها (الإلكترونات) التي تطوف حول (النواة) التي تحتوي على (البروتونات) السالبة والموجبة المتوازنة .. ليس هذا فحسب لكن لاحظ العلماء ألوفاً من الثنائيات النجمية تتألف من نجمين مرتبطين متزاوجين يشد بعضهما بعضاً ويرتبط به ويطوفان معاً ، مما جعل أنشتاين يكتشف

نظرية المجال الكوني ، أو يثبت في نظريته النسبية ناموس الجاذبية للمجموعة الشمسية (١) .

وأن هذه الوحدة والتزاوج في الكون لتشهد بوحدة اليد المبدعة التي توحد قاعدة التكوين ، مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس والخصائص والسمات في هذا الكون الذي لا يعلم علمه إلا الله (٢) .

وهكذا يتجلى إعجاز الإشارات القرآنية الكريمة – في سنة الزوجية – مع روعة المكتشفات العلمية الحديثة القاطعة ، وهكذا نفيد من الحقائق العلمية الثابتة والمبرهن على صحتها في توسيع فهمنا لكتاب الله وتعميقه ، ولا ريب أن كثيراً من المفسرين – كما يلاحظ – قد فسّروا الآيات الخاصة بسنة الزوجية في حدود معارفهم وثقافتهم ، بما لا يستوي معانيها وأغراضها ومراميها ، مما يجعلنا أن نؤكد على أهمية أن يكون ملماً إلماماً جيداً بحقائق العلم التجريبي الحديث ونتائجه (٣) .

وجملة القول أن المخلوقات كلها – المادية والمعنوية – تبرز من خلال زوجين اثنين يعبر عنهما في عالم الإنسان والحيوان والنبات بالذكر والأنثى ، وفي الجماد بالموجب والسالب وفي الأفكار بالصواب والخطأ، وفي المشاعر لها متقابلات عديدة كالرضى والغضب والسرور والحزن ، وفي القرآن تفصيلات وأمثلة لهذه الزوجية منها : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [هود: ٤٠] ، ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الرعد: ٣] ، ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩] ، ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣] .

---

(١) . انظر : لفتات علمية في القرآن الكريم ، يعقوب يوسف (ص ٢٥) بيروت ١٩٥٩ م .

(٢) . انظر في ظلال القرآن ،تفسير سورة يس .

(٣) . انظر الإسلام والنظر في آيات الله الكونية ، ص ١٣٣ وما قبلها .

وتتنوع الأزواج والأجناس تنوعاً يبرز إبداع الخالق وقدرته وأفعاله – جلّ ثناؤه – .

٢.ظاهرة القانون :

القرآن الكريم في كثير من آياته يشدد على الانتباه لهذه الظاهرة ويلفت النظر إلى الحكمة في الخلق والأحداث ، ويفند التصورات الأفكار المخالفة لهذه الظاهرة ، فينفي التعليلات الخرافية وينفي العبث عن الخلق ، وهو يعبّر عن هذه الظاهرة بأسماء مختلفة فتارة يسميها (القدر) وتارة (الحق) وتارة (الأجل) والأمثلة لذلك كثيرة منها :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] ، ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم: ٨] ، ومعروف أن ظاهرة القانون من أبرز الظواهر التي تسهل المعرفة وتطبيقاتها العملية ، وليس أدل على انتظام أمر الكون من أنه خاضع لقوانين وسنن ثابتة من قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦] ، أي ليس فيها عيوب أو نقائص أو خلل ، بل ينتظمها قانون دقيق ، والقرآن حين يوجه العقول إلى النظر في الكون واكتشاف سنن الكائنات وما ينتظمها من قوانين ، إنما يدعو دعوة صريحة إلى العلم بالمعني الذي يفهم منه في عصرنا ، فالقرآن يذكر في آيات كثيرة أن الله قد خلق المخلوقات على اختلافها بالحق ، وهذا يعني أنها لم تخلق باطلاً أو عبثاً أو على أي نحو اتفق . يقول تعالى : ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم: ٨] ، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[التغابن: ٣] .

ومعنى كلمة الحق الورادة في مثل هذه الآيات ما يوجد بمقتضى الحكمة ، كما يذكر الراغب الاصفهاني ، ولذلك توصف أفعال الله كلها بأنها الحق ، أي أنها تصدر عن الله بمقتضى علمه وحكمته ، وإلاّ لم تكن حكمة ، وهذه القوانين والسنن ليست شيئاً أكثر من ربط الأسباب بمسبّباتها .

ومن أعظم البصائر التي جاء بها القرآن الكريم والتي تشير إلى ظاهرة القانون مفهوم (القضاء والقدر) حيث يشير إلى الخلق الهادف والوجود المقنن ، حيث كان الإنسان قبل ذلك يتصور أن الوجود خاضع لملايين القوى العابثة ، وكان الإنسان ضحية الخرافية والصدفة .

ومن القوانين التي أشار اليها القرآن الكريم والتي يحسن أن نشير إليها ونتأملها في السطور التالية :

أ . قانون التوازن :

ب . قانون الجاذبية الأرضية والكونية .

١ . قانون التوازن :.

من قوانين الله الكلية التي تندرج تحت القانون الإلهي العام الأعظم للكون (قانون التوازن) وقد أشار الحق سبحانه وتعالى إلى هذا القانون بقوله : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ الملك: ٣ .

فقانون التوزان نجده في الأرض يتمثل في كل شيء حتى في المادة الجامدة ، فهذه المادة الجامدة التي لا تملك شعوراً فإنها تتبع قوانين صارمة وسنن رياضية محكمة تدعو إلى الدهشة والإكبار [١] ، ولا يستطيع المرء أن يرفع ببصره نحو السماء إلاّ ويغض إجلالاً ووقاراً لله حين يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة ، ويراقب سيرها في أفلاكها وتنقلها في أبراجها . فكل نجم وكوكب إنما هو دنيا بذاتها أكبر من الأرض وما فيها وهي تسير بنظام دقيق وتناسق تام وتحتفظ بأوضاعها لقوانين الجاذبية فلا يصيبها خلل أو سقوط [٢] .

٢ . قانون الجاذبية الكونية :

---

(١) . انظر (هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر (ص ٩٤-٩٦) . وانظر ((الإسلام يتحدى)) لوحيد الدين خان ص ٨٥ .

(٢) : انظر ((الله والعلم الحديث)) عبد الرزاق نوفل ص ٢٥ .

يكمن الإعجاز الرباني في ربط هذا الكون برباط محكم وعلائق ثابتة ، وسنن لا تتبدل ولا تتحول ويشير الحق تعالى إلى هذه السنة بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] .

توضح هذه الآية الكريمة أن الله جل جلاله هو وحده مبدع السماوات والأرض ، يمسكها من الزوال ، فالأجرام السماوية النائية في أعماق الفضاء والقريبة منّا تظهر على القبة السماوية متماسكة ، وذلك تبعاً لسنن ونظام بديع أتقنه الله جل جلاله وهو ما أودعه فيها من جاذبية فلا تحيد عن هذا القانون على مر الزمن ، فيحفظها من الاختلال في التوازن ولهذا فإنه يندر سقوط نيازك كبيرة على الأرض، وإذا وقعت تقع في الأماكن الخالية من السكان تقريباً وهذا من فضل الله عزّ وجل رأفة بعباده ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢] ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥] ، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[الرعد: ٢] .

وقد عرف علماء الفلك شيئاً عن كيفية هذا التماسك عن طريق قانون الجاذبية الكونية التي لا ترى كمجالات الجاذبية المغناطيسية .

وللأرض أيضاً نطاق ومجال جاذبية ، إذ أن أكبر عقبة تحول دون وصول الإنسان إلى الكواكب الأخرى هي الجاذبية ، فلوصول الإنسان إلى الفضاء عليه أن يتخلص من جاذبية الأرض ، وفي رجوعه إليها لا بد له من التخلص من جذب الكواكب الذي استقر عليه ، والطريقة الوحيدة للنفاذ من أقطار جذب الأرض هي الصعود بسرعة عظيمة ، وفي أثناء العودة يحتاج لنفس العملية ، ونفاذ الإنسان من السماوات والأرض يحتاج إلى سلطان وقوة ، كما ذكر الله تعالى في محكم تنزيله : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن: ٣٣] ، فهذه الآية لا تنفي نفاذ الإنسان من تلك الأقطار والمجالات الجاذبية ، وإنما تشترط السلطان والقوة والعلم ، وقد وفّرت والحمد لله عن طريق العقل البشري تلك القوة ممثلة في الصواريخ والأقمار الصناعية لأغراض علمية شتى ، لكن النفاذ المطلق من أقطار السماوات والأرض والتي يحتاج ملايين السنين الضوئية ، أشبه بأحلام العصافير والمحاولة في إشباع الرغبات ، كما أشبعت الفلسفة اليونانية القديمة لذّة المفكرين حين أغرقت في الميتافيزيقيات ، ولهذا فلم يتوجه الإنسان إلى عمارة الأرض ، ويسعى إلى استعمارها وصلاحها الاستصلاح المطلوب ، فهي التي سخرها الله تعالى للحياة والمعاش ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨ – ٤٩] ويقول سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ﴾[الجاثية: ١٣] .

٣. ظاهرة فناء عناصر الطبيعة السماوية كما يفنى غيرها من العناصر الطبيعية :

يبين القرآن الكريم في طكثير من آياته سنة ربانية عامة وهي: أنه ليس هناك شيء في الطبيعة خالد ، بل أن جميع عناصرها فانية زائلة ، وفي جملتها عناصر الطبيعة السماوية فالشمس والقمر والنجوم على ضخامتها فإنها خاضعة للسنن الربانية في فناء المخلوقات، وتبدو هذه الحقيقة أكثر أهمية ووضوحاً حين ترتبط بيوم القيامة ، يقول تعالى مبيناً هذه الحقيقة: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ ﴾[فاطر: ١٣] ، ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ [لقمان: ٢٩] .

فالآيات الكريمة تشير إلى أن للشمس أجلاً تنتهي بعده ، فلا سبيل لخلود المنظمة الشمسية فكما كانت لهذا المنظومة بداية سوف تكون لها نهاية ، والعلم يؤكد ذلك ، فقد فسر العلماء نهاية النظام الشمسي في عدة آراء منها ما نادى بعض بعض العلماء من أن السراج

الوهاج يحرق وقوده الذري الهيدروجيني ، فيتحول هذا الغاز إلى هيليوم بحيث تصبح الشمس بعد مئات السنين قزماً بسبب ما تفقده من إشعاع وقد يكون هذا نهاية لها ، وأنه ببرود الشمس وانطفاء شعلتها يحدث الانقلاب الكوني يوم القيامة ، وباندثار النجوم وفقدان طاقتها وانطماس ضوئها يقترب فناؤها ، ويعبر القرآن الكريم عن بعض مظاهر موعد انتهاء نظامنا الشمسي في آيات عدة منها : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ [القيامة: ٧ – ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠] ، ويقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] .

ولننظر في الآيات التالية أيضاً لنرى كيف صوّرت لنا هذه السنة الكونية أبرع تصوير وأبينه :

يقول تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١ – ١٢] .

فلننظر بعد هذا في ما فهمه المفسرون من (التكوير) و (الانكدار) اللذين وردا في الآيات السابقة :

- قال الزمخشري : ((في التكوير وجهان : أن يكون من كوّرت العمامة إذا لففتها أي يلف ضوؤها لفاً ، فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق ، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها؛ لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطاً غير ملفوف ، أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها، لأن الثوب إذا أريد رفعه لف وطوي . ونحو قوله ﴿ يَوْمَ

﴿ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ، وأن يكون من طعنه فجوره وكوره . وإذا ألقـاه أي تلقى وتطرح عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار [١] .

- وجاء في الفخر الرازي كورت أي ذهب ضـوؤها ، قـال الأصـمعي : يقـال طعنـه فكوّره إذا صرعه فقوله إذا الشمس كورت أي ألقيت ورميت من الفلك) [٢] .
- وقال الألوسي : (... ويجب أن يكون المراد بكورت : ألقيت عن فلكها ، وطرحت ، من طعنه فجوره وكوره أي ألقاه مجتمعاً على الأرض)) [٣] .
- وهكذا نجد أن معنى تكوير الشمس لم يخرج عن إزالتها والذهاب بضوئها . فلننظـر بعد هذا في معنى الانكدار الذي وصفت به النجوم في الآيات التي مرت .
- قال الزمخشري : ((انكدرت وانقضت)) [٤] .
- وقال الرازي : ((قوله إذا النجوم انكدرت ، أي تناثرت وتساقطت كما قـال تعـالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار: ٢] ، والأصل في الانكدار الانصباب ..)) [٥] .
- وقال الألوسي : (• وإذا النجوم انكدرت: أي انقضت وسقطت ومنه انكدر البازي، إذا نزل بسرعة على ما يأخذه ..)) [٦] .

---

(١) الكشاف : ٣/ ٣١٥.

(٢) : مفاتيح الغيب (٨/ ٣٣٧-٣٣٨) .

(٣) : روح المعاني ٩/ ٣٠٤ .

(٤) : الكشاف : ٣/ ٣١٥ .

(٥) : مفاتيح الغيب : ٣/ ٨٨ .

(٦) : روح المعاني : ٩/ ٣٠٤ .

فانكدار النجوم إذاً يعني زوالها وفناءها ، كما تبين من اقوال المفسرين السابقة فلننظر بعد هذا إلى مشهد ثان من مشاهد الهول في يوم القيامة يعزّر مفهوم القرآن في فناء الكواكب وعدم أبديتها ، قال تعالى : ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر : ١ – ٢] ، فالإمام ابن تيمية يرى في آية القمر دليلاً على جواز زوال الكواكب، رداً على الفكر الفلسفي القديم الذي كان يقول بأبديتها ، وعدم تطرق الانحلال إليها ، وبذلك يمكن القول أن الآية الكريمة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ قد فنّدت بصورة محسوسة الزعم الوثني والفلسفي القديم، الذي كان يرى أن الكواكب لا تقبل الانحلال والفناء فوق ما دلّت عليه من صدق نبوة الرسول ﷺ (١) .

٤ . ظاهرة السببية :

من خلال التمعن في كتاب الله نجد آياته البينات كشفت عن سنة ربانية وهي الربط بين الأسباب والمسببات ، فوضعت أيدينا على الخيط الذي يربط بين الظواهر والأشياء فمنحتنا آيات القرآن بذلك رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود ، لأن معرفة الأسباب وخصائصها وإتقان التعامل معها يفتح آفاقاً لنا من المعرفة وتطبيقاتها ويحقّق لنا الاستعانة على أمور معاشنا ومعادنا في دنيانا وآخرتنا .

ولقد أكثر القرآن الكريم بطريقة المنبثة عبر سوره وآياته من التأكيد على بيان الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه .. إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل لن يكون قادراً على التحقق بالقناعات الكافية .

---

(١) : انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، للإمام ابن تيمية (٤/ ١٥٨-١٦٧) .

ولن يستع المجال لاتسعراض الآيات التي بينت هذه الرؤية التركيبية للكون وربطت بين الأسباب ومسبباتها فهي كثيرة جداً وخاصة الآيات المكية منها لأنها كانت تقتضي تربية العقيدة في النفوس وتثبيت الإيمان بها ، ومن خلال هذا التأكيد غدا الكون والعالم والطبيعة والوجود سلسلة من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق العلل والأسباب [1].

ولكن حتى لا يقع الوهم بفاعلية الأسباب المطلقة أو أنها هي الخالقة يجري تعطيل عمل هذه الأسباب في حالات معينة ، ومن ذلك قول الحق ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾[الشورى: ٥٠] ، ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] .

والإنسان في فترات ضلاله وانحرافه عن منهج الأنبياء قد توهّم بفاعلية هذه الأسباب وقدرتها على العطاء والمنع وقد توهمت – حمامة سكنر – بفاعلية النقطة المضيئة في أعلى الصندوق وقدرتها على إسقاط حبة القمح أو حبسها فراحت تنقرها عند الحبس فتوهم الإنسان بقدرة الشمس والقمر والأنهار والحيوان على المنع والعطاء، ومضى ينقر لهؤلاء جميعاً أو يسجد بجبهته كلما توقف عنه العطاء ([2]) .

والذي ينبغي ملاحظته في هذا المقام أن السنن الكونية ثابتة ومنتظمة ومتوازنة، لا تضل ولا تتوقف – كما بينا ذلك في حديثنا عن خصائص السنن – ولكنها قد تخرج عن قانونها لأسباب أخرى يريدها الله ويقدرها، فتتبدل وتتحول على نسقها ونظامها وتوازنها كحدوث بعض الزلازل والهزات الأرضية والعواصف ، وامتناع القطر أو انخساف القمر.. وغير ذلك، وفي هذه الحالات يكون هناك تداخل بين السنن الكونية والتاريخية من حيث فهمها باعتبار الغرض أو الحكمة الذي من أجله تحوّلت عن نسقها وخرجت عن قانونها وانتظامها .

---

(١) : انظر : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، د.عماد الدين خليل (ص ٤٩ وما بعدها) .

(٢) : انظر فلسفة التربية الإسلامية ، د. ماجد عرسان الكيلاني ، ص ٢٤١ ، مكتبة المنار – مكة .

ولا شك أن من أعظم من خرق الله به العادة ، وغيّر به وجه التاريخ ، وحوّل الأحداث وجهة أخرى لا تخضع لقانون الأسباب والمسببات المادي .. ، هو إذلال الكثرة الكافرة بالقلة المؤمنة ، والتاريخ البشري كله برهان على ذلك ، فها هي القلة التي كانت مع نوح هي التي أنجاها الله سبحانه وأهلك الكثرة الكاثرة من أهل الكفر والعناد ، وهذا ما كان أيضاً مع صالح والمؤمنين معه وشعيب والمؤمنين معه ، وها هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ينجووقومه من الذل والعبودية ويحطم الله له أعظم قوة عاتية في زمن موسى بما صنعه الله من العجائب ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣] ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] ، وهذا عيسى عليه السلام وحواريه القليلون المطرودون من أرض فلسطين والملاحقون من اليهود والرومان في كل قرية وناحية ، ينجيه الله ويطهره من رجس الكفار ويجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وهذا نبينا محمد ﷺ والفئة القليلة معه يمكّن الله له في الأرض ويهلك عدوهم ويمحو آثارهم ، ويخرج أمته المباركة بالدين القويم والسيف الصقيل من أرض العرب فيدكون عروش الجبابرة ، كسرى وقيصر، ويزيلون كل ألوان الكفر والشرك والطغيان ، يقيمون أعظم أمة للإيمان على وجه الأرض .

ظاهرة السببية بين الإثبات والتعطيل :

هناك من يرى أن العلاقة بين ما يسمى السبب وبين ما نسميه بالمسبب هي علاقة مقارنة وارتباط في الوجود ، وليست علاقة تأثير وإيجاد أو ضرورة عقلية .

وبكلمة أخرى: أن التلازم بين الأسباب والنتائج في ظاهرات الطبيعة ليس تلازماً حتمياً، وإنما هو تلازم المشاهدة والمقارنة في الحدوث ، وقد حمل لواء هذه النزعة في الإسلام ودافع عنها بحرارة الإمام الغزالي في بعض آرائه ، وتبعه غير واحد من متقدمين ومتأخرين مسلمين وغير مسلمين منهم (هيوم) وعباس محمود العقاد في بعض كتاباته [١] .

والواقع أن إلغاء مبدأ السببية في الطبيعة والقول بأن وجود جميع الظاهرات في العالم هي من فعل الله مباشرة دون أسباب وقوانين طبيعية ، إذ لا أسباب ولا علل في الطبيعة ، قول لا يتفق مع واقع التصور الإسلامي الصحيح على أن هذه النزعة من الأفكار الدخيلة على الفكر الإسلامي على أيدي أولئك المتصوفة الإسلامين ، وهي من جملة التراكمات الفكرية التي امتصتها العقيدة الدينية من تلك الشعوب التي دخلت الإسلام ، وحملت معها كثيراً من موروثاتها وعقائدها ومفاهيمها الماضية .

ولو رفضنا قانون السببية – وهو من المرتكزات الفطرية الأولية – لم يكن لما ورد في النصوص الدينية الحث على التدبر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض وفي آثاره وأفعاله تعالى أي محتوى وأي فائدة ، لأن مثل هذا لا يصح إلا على اساس مبدأ العلية الذي ندركه بفطرتنا والأخذ بنزعة تعطيل قانون السببة يفضي – حتماً – إلى توقف نشاطات الإنسان في جميع مجالات الإنتاج والعمل ، حيث لا يكون أي نشاط عملي مؤدياً إلى نتيجة ما دام كل ذلك يصدر عن الله مباشرة ، ولا تجدي جميع الوسائل والأسباب ، ويجعل جميع النصوص الدينية

---

(١). انظر : الفلسفة القرآنية ، عباس محمود العقاد (ص ١٠٥) .

التي تحثّ على السعي والعمل في سبيل العيش والحياة دون معنى، ويجعل أيضاً جميع الجهود الإنسانية في سبيل المعرفة والتجريب والتقدم والكشوف العلمية عبثاً[1] .

ويتحدث ابن حزم عن أن الله تعالى قد جعل لكل موجود طبيعة معينة قائلاً : ((وكل هذه الطبائع (التي للموجودات) والعادات مخلوقة ، خلقها الله عز وجل فرتّب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبداً ولا يمكن تبدلها عند كل ذي عقل ، كطبيعة الإنسان بأن يكون ممكناً له في التصرف في العلوم والصناعات إن لم تعترضه آفة ، وطبيعة الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك وكطبيعة البر (أي القمح) أن لا ينبت شعيراً ولا جوزاً ، وهكذا كل ما في العالم))[2] .

وإلى هذا يشير ابن رشد في عبارات تدل على علمية تفكيره قائلاً : ((الحكمة ليست شيئاً أكثر من معرفة أسباب الشيء ، وإذا لم تكن للشيء أسباب ضرورية تقتضي وجوده على الصفة التي هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره، كما أنه لو لم تكن هناك أسباب ضرورية في وجود الأمور المصنوعة لم تكن هناك صناعة أصلاً ولا حكمة تنسب إلى الصانع دون من ليس بصانع .. وأي حكمة كانت تكون في الإنسان لو كانت جميع أفعاله وأعماله يمكن أن تأتي بأي عضو اتفق أو بغير عضو ، حتى يكون الإبصار مثلاً يأتي بالآذان كما يتأتى بالعين والشم بالعين ، كما يتأتى بالأنف .. وهذا إبطال للحكمة وإبطال للمعنى الذي سمى به الله نفسه حكيماً وتقدست أسماؤه عن ذلك .. وعلى ذلك فإن

---

(١) : انظر : عقيدتنا للشيخ عبد الله نعمة ، ص ٤٦ .

يجب أن لا ننسى في هذا المقام ارتباط القيم الدينية بالسنن الكونية ، ومعرفة ناظم العلاقات والتداخل بين السنن وتعلقها الصلوحي في إدراك هذا الوجود ، والتفريق بين سنة الله وقدرة الله ، ومجالات السنن الهادية والسنن البانية .

(٢) : الفصل ٥/ ١٦ .

بناء المسببات على الأسباب هو الذي يدل على أنها أي (الموجودات) صدرت عن علم وحكمة)) [1].

٥. ظاهرة الوحدة والتنوع والاختلاف :

وقد أشار القرآن الكريم إلى ظاهرة الوحدة والتنوع ، حيث تتوحد المخلوقات من حيث النشأة والأصل ولكنها تتنوع تنوعاً يفوق الحصر قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥] ، وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١] ، وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧ – ٢٨] .

فالكون كما أراده الله يتميز بالتنوع والاختلاف، ولو ترك دون ضابط ودون هداية لتنافر وانحل، فسنن الله الكونية والتاريخية والإنسانية والتشريعية تمسكه في نظام لا خلل فيه ولا فتور، قال تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١] .

---

(١): الكشف عن مناهج الأدلة ، ص ٤١ ، ٨٨ ، طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ .

إن هذا الكون من الذرة البسيطة إلى المجرة الضخمة يتحرك فيتخذ أشكالاً دائمة التغير والتطور ،، فالذرة لا تهدأ والنجوم تتقد أو تخمد والخلايا تتكون وتهـدم ، والكـون لا يعـرف السكون أبداً ، وهو يتميز بالتنوع والاختلاف وهي سنة ربانية لحركته ، وهو مع ذلك مضبوط منظم من قبل الله عز وجل .

والحال أيضاً في الإنسان ، لا يتفق مع غيره في الشكل والطبع بل هو متميز متنوع ، وهو أيضاً في حالة حركة إمّا إلى شباب أو إلى هرم ، وكذلك المجتمعات متباينة مختلفـة وفي حركـة دائمة ، إما إلى حضارة أو نكسة ، إمّا إلى هدى أو إلى ضلال : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧] .

٦. ظاهرة التطور :

من سنن الله أن الخلق يتم خلال أطوار ومراحل ، وهـذه الأطـوار موجـودة في ميـادين الخلق عامة ، وظاهرة التطور هذه تؤثر في حياة الإنسان تأثيراً بالغاً ولذلك احتـاج إلى معرفـة مجرياتها وعواملها ونتائجها ، وهي تفتح آفاقاً وميادين في المعرفة لا حدود لها.

٧. ظاهرة الجمال :

يعرض لنا القرآن الكـريم الكـون ومشـاهده في صـورة جماليـة أخّـاذة يتملاهـا الحـس والشعور والوجدان ، وظاهرة الجمال التي يشير إليها القرآن الكريم نجدها في كل شيء في هذا الوجود وفق ما أراد المبدع لكمال تكوينه ، فعنصر الجمال مقصود في الكون قصداً مـن الخـالق العظيم وتتجلى صور هذا الجمال في آيات كثيرة من آيات الذكر الحكيم وذلك حين تحدثنا عن مشاهد الحياة كمناظر الحدائق والأزهار والثمار وألوانها . قال تعالى : ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩] ، وقـال تعـالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [الأنعـام: ٩٥] ،وكذلك فإن الجبال

والأنعام مجال واسع لتدبّر هذه الظاهرة : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٦] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧ – ٢٨] .

والواقع أن هذه الظاهرة لا تنفد في كل الموجودات لكل من تدبّرها ، وهي بلا شك علاوة على أنها تحيي القلوب وتزيد الإيمان بالله ، فإنها تفتح أفاقاً وميادين من المعرفة لا حدود لها .

فتلوين زهرة واحدة وتنيسقها ليعجز عنه أعظم رجال الفن من البشر ، وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث ، وقس على ذلك حركة الأسماك وألوانها وتموجها وأصوات الطيور وأشكالها [1] .

٨. ظاهرة تكامل عالم الغيب وعالم الشهادة :

وهي ظاهرة مستمرة جارية خلال رحلة الإنسان الطويلة ، وهي تفتح آفاقاً من البحث والدراسة والكشوفات العلمية لا حصر لها .

وبهذا يتضح لنا أن الكون كله جدول من السنن والقوانين والظواهر المنضطبة ، وكل يوم يثبت العلم لنا أن الوجود يسوده نظام معجز أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير إلاّ أن يشاء الله شيئاً لحكمة يريدها ، وعلى مقدار كشف الإنسان لهذه السنن يكون تسخيرها في الحياة لخدمته في معاشه ومعاده [2] .

([1]) : انظر في ظلال القرآن ص ٣٦٥٦ ، وراجع كتاب منهج الفن الإسلامي للأستاذ محمد قطب فقد درس هذه الظاهرة دراسة رائعة .

([2]) : انظر : ((الله بين الفطرة والدليل)) الشيخ حسن آل يس . ص ٨٨-٨٩ ، طبعة ثالثة، المكتب الإسلامي بيروت ١٣٩٥ هـ .

الخاتمة

في نهاية الحديث من هذا الكتاب يتبادر إلى الذهن سؤال هام : من أين جاء هذا الرسول الخاتم بهذا العلم ، لو لم يكن موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل الله تعالى ، والصحيح أنه لا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذه الحقائق العلمية من قبل ألف وأربعمائة سنة ، غير وحي صادق من الله جل جلاله ، فسبحان الذي أوحى إلى خاتم أنبيائه ورسله بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ليبقى موائماً لكل عصر، وتبقى البشرية جارية على مراده عز وجل ، خصوصاً في هذا الزمان الذي تميز بقدر من الكشوف العلمية والتطورات التقنية ، والذي يحتاج إلى أسلوب دعوي جديد وخطاب علمي معاصر .

وإنني أناشد وأدعو كل مسلم مهما كانت صفته أن يبلغ هذا الحق وهذا الدستور الخاتم، ويوضح مبادئه وحقائقه للناس أجمعين . وأن يرفع الحجب والأقفال والأغلال التي تحول بينه وبين خالقه، من كِبر وغفلة وانغماس في الماديات ، وأن يعود إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، ويتذكر العهد الذي أخذه الله على بني آدم في عالم الذر ، فإن ما أصاب أمتنا الإسلامية من تخلف وغفلة وتكاسل في تبليغ هذا الحق وهذا الدستور الخاتم ، وتوضيح مبادئه وحقائقه للناس ، لا يقل عن الفاجعة التي وقعت فيها الأمم السابقة من تحريف للتوراة والإنجيل المنزلة على موسى وعيسى عليهما السلام ، والفرق واضح بين التحريفين ، ولنتذكر ما جاء في سفر الشيخ أبي الحسن الندوي (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) فالإسلام قضية حق في يد محام كسول ، ويا لهذا الدين لو كان له رجال .

وفي الختام أسأل الله لي ولوالدي الرحمة والمغفرة ، وأن يرزقنا السداد والصواب في القول والعمل والأمور كلها .

وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ونافعاً لي وللمسلمين وسبباً لهداية الناس أجمعين .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

والحمد لله أولاً وآخراً .

الفهرس

المبحث السابع

المبحث الثامن

المبحث التاسع